



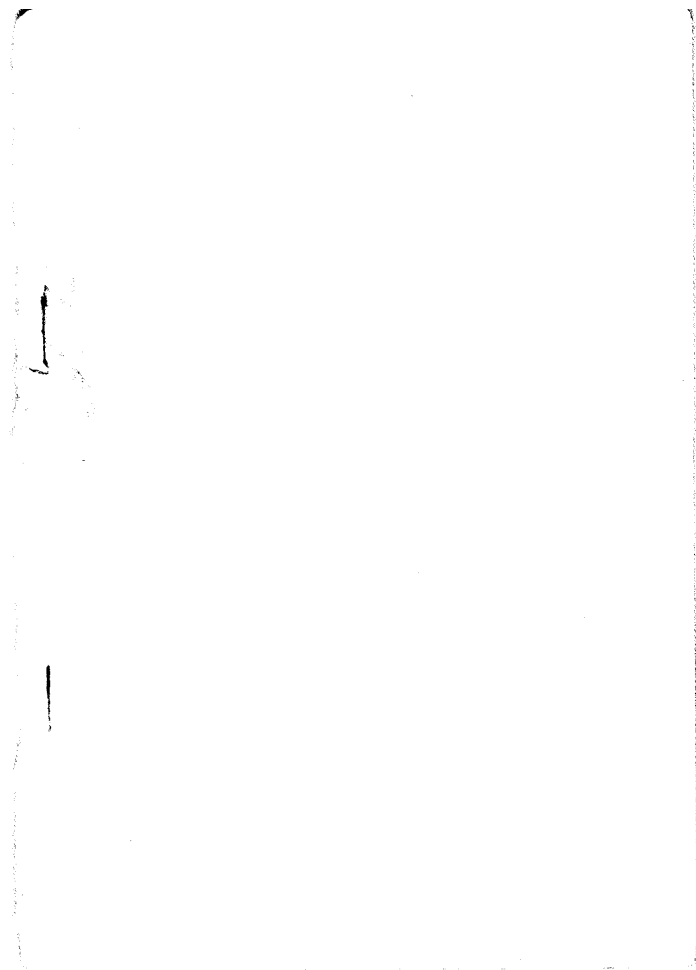
المكتبة الثقافية

# طه حنين

والبحث عن العدل الاجتماعي

أحمد عبد الرازق أبو العلا



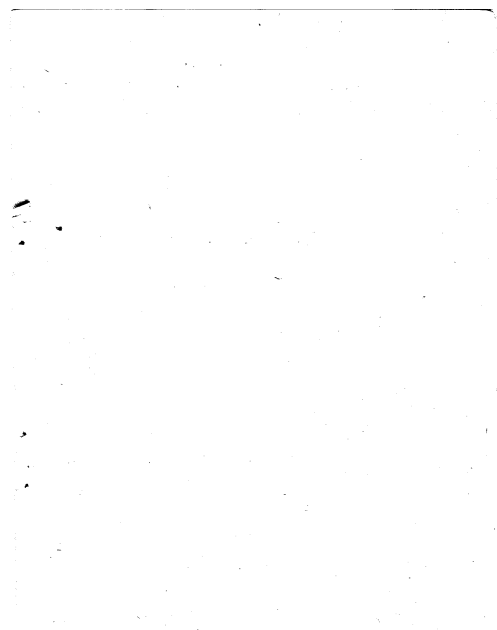


( انما حين اذيع في الناس رايها ،  
او انشر فيهم كلاما لا تحفظ ، ولا اعطى بيد  
لاخذ بالآخرى وانما اذيع مخلصا وانزل للناس  
صادقا عن كل ما انشر وما اذيع وايبح لهم ان  
ياخذوا ، وان يستفوا بل اجد سماعة حين  
اراهم ياخذون ويستفون ، وليس يقيني ان  
يقولوا اخذنا عن فلان واستقلنا مذهب فلان  
وانما يقيني ان اكون نافعا ، وانما اوتر ان  
انفعهم على غير علم من الناس ) .

( د\* طه حسين )

من حديث الشعر والنثر





## مقدمة

عندما قال ( جمال الدين الأفغاني ) في كتابه  
الخطرات : « عليكم أن تخضعوا لسطوة العدل ،  
فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون  
العدل بينهم » ص ٤٠١ •

لم يكن هذا بغريب عليه ، خاصة وأن مفهوم  
العدالة كان مطروحا في تلك الفترة بشكل ملحوظ ،  
وأعني فترة النهضة العربية الحديثة التي تبلورت  
معالمها عند زفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني  
وغيرهما ( القرن التاسع عشر ) ومن المقرر أن ( العدالة

والحرية كانا المطلبين الأكبرين لأعظم العقول الاجتماعية  
التي أظهرت إلى الناس أفكارها منذ رفاة رافع  
الطيطاوى إلى الآن ، ولأبيل التصورات والحركات  
السياسية في مشرقنا ومغربنا منذ الثورة العرابية وقبلها  
ثورة المصريين على الحملة الفرنسية ، حتى ثورة  
٢٣ يوليو وما تلاها من ثورات وليدة أخذت مأخذها في  
المشرق إلى ثورة شعبي المغرب والجزائر على التواجد  
الأفريقي الغربي ( ١ ) .

واستمرت رحلة البحث عن معنى العدل في القرن  
العشرين على أيدي مفكرين آخرين منهم ( د. طه  
حسين ) والذي حاول أن يضع مفهوما محددا لهذه  
التقضية خاصة وأنه من هؤلاء المفكرين الذين يؤمنون  
بإمكانية العقل وقدرته على التفكير ، الأمر الذي جعله  
موضعا للاتهام الدائم من قبل الذين يضعون قيودا على  
حرية التفكير ، وحرية النظر والطرح .

( ١ ) العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة -  
د. عزت قرني - عالم المعرفة - يونيو ١٩٨٠ م - العدد رقم ٣٠  
من ١٢ .

فهو متهم بالتشيع للحضارة الغربية ، ومتهم بالتشيع للفكر الوثني اليوناني حيث كتب عنه ، ومتهم بأنه كان عاملا مساعدا للغزو الفكري حتى أصبحنا تابعين للفكر الغربي ، وإذا كان الأمر كذلك ( فيماذا تنهم فلاسفة المسلمين وفي مقدمتهم ابن رشد وابن سينا والفارابي ) ممن تأثروا بالفكر اليوناني وكان دورهم مزدوجا : ( دور الرسول الحامل لأوروبا رسالة اليونان ، ودور الفاعل بما ابتكر وأنتج ؟؟ هل تهمهم بالترويج للفكر الوثني أم ترانا نقول عنهم انهم كانوا يعبرون عن أشواق عصر واحتياجات حضارة وقيم مجتمع وانهم أضاءوا بفكرهم ظلام العصور الوسطى في أوروبا ) «٢» •

والحديث عن العدل الاجتماعي عند طه حسين لا يمكن أن يفصل عن الحديث عن فكر الرجل بداية وتأثير ذلك الفكر على تناوله لهذه القضية فمما لا شك فيه أن الدكتور طه حسين كان حريصا - ومنذ

(٢) طه حسين متهما امام محاكم التفتيش - سامح كريم - صحيفة الاهرام الصادرة في ١٠/٢٥/ ١٩٨٥ م .

البداية - على أن يختط لنفسه طريقة للنظر لا تتفق والطرق الأخرى تستفيد منها نعم ، لكنها تقوم على ما يؤمن به في البداية وما يقره عقله في النهاية .

فمنهج « ديكارت » الفلسفى العلمى كان هو منهجه في دراسة الشعر الجاهلى ( الذى حاول أن يقدم قراءة تقترح إعادة بناء النص الأدبى العربى تأسيسا على محاولة نمذجة الكتابة الأدبية العربية وقياسها على الكتابة الأدبية إيمانا بالعلاقة التاريخية والثقافية التى تجمع بين الذات العربية - النص الأدبى العربى - وبين الغرب - النص الأوروبى - بحيث كانت رؤية طه حسين الى العالم الذى يريد صياغته للفكر العربى ، أو لدولته الثقافية منذ العشرينيات محكومة بالفرضية التالية :

لما كانت أوروبا قد استطاعت إعادة صياغة تاريخها وحضارتها اعتمادا على الحضارة الاغريقية والرومانية ، فلماذا لا نعتد نفس الطريق وقد سلكته الحضارة العربية من قبل ( ؟؟ )

وقضية العدل لم يتناولها د. طه حسين بمعزل

عن قضية الحرية لأنه يؤمن بأن ثمة ارتباط بين  
القضيتين ، فذلك المنهج الذي اتبعه يدعو الى العقل  
وتحرر الانسان ، ونحن في هذه الدراسة نركز على  
كيفية تناول الدكتور طه حسين لقضية العدل الاجتماعى  
وارتباطها بحرية الانسان من خلال كتابيه ( المذبذبون في  
الأرض ) والذي نشر في لبنان عام « ١٩٤٩ م » بعد أن  
سجبت الحكومة نسخه من المطبعة بنصره ، أو كما يقول  
في مقدمة الطبعة الثانية ( صدر الأمر بأن يحال بين  
هذا الكتاب وبين الناس ، وبأن تؤخذ نسخه من المطبعة  
حيث يصنع بها السلطان ما يشاء ، يحرقها أو يمزقها  
أو يفرقها وصور فيما صور من كتب أخرى كانت  
تريد أن تبصر المصريين بحقائق أمورهم وتعظ منهم  
الطغاة والغباء وتعزى فيهم البائسين واليائسين )  
و ( ما وراء النهر ) والتي نشرها عام « ١٩٦٤ م » في  
أعداد مختلفة من مجلة الكاتب المصرى التى أصدرها  
طه حسين في أكتوبر ( ١٩٤٥ ) .

ونحن نتناول هذين العاملين من زاوية خدمة  
الهدف الذى سعينا منذ البداية الى توضيحه وبيانه ،

وهو : كيف كان طه حسين دائم البحث عن مفهوم محدد  
للعدل الاجتماعي مطلقاً من التأكيد على حرية الانسان  
في الفكر والعمل ( ومع أهمية الدور الذي أدته أعمال  
طه حسين الابداعية مثل ( دعاء الكروان - شجرة  
البؤس - الوعد الحق - المذبذبون في الأرض - ما وراء  
النهر ) في ابان ظهورها في دعم مكانة الفن القصصى في  
مجتمع كان ما يزال يشتمل في تكوينه الثقافي على قنات  
تسمى النظر الى هذا الفن ، ومن ثم تسمى تقدير  
كتابه ( «٣» ) .

الا اتنا لا تناولها من زاوية نقدية-تنظر الى  
الجانب الابداعي فيها ، بقدر ما نتخذها وسيلة لتوضيح  
وجهة نظر أردناها من خلال تناولنا لذلك البحث عن  
العادل الاجتماعي الذي كان يفتنى الدكتور طه حسين ،  
وتلك الحرية التي كان دائما ما يؤكد على حتمية وجودها

(٣) د. عز الدين اسماعيل - طه حسين ونجديد الذكرى  
للمظاهرة التاريخية - صحيفة الاحرام المصادرة في ١٢/١/١٩٨٣ م .

والدفاع عنها فحين كتب عن الشاعر الفرنسي ( بودلير )  
طرح من خلال التناول السؤال التالي :

— هل يملك الفن هذه الحرية التي تتيح له  
ألا يحفل إلا بنفسه وبالجمال من حيث هو جمال ،  
سواء أوافق في ذلك ما ألف الناس من أخلاق ونظام  
ودين أو لم يوافقهم ؟؟

يجيب :

المهم أن الأدب مهما يكن أمره ، كائن اجتماعي  
لا يستطيع أن ينفرد ولا أن يستقل بحياته الأدبية مهما  
يكن أمره ولا يستقيم له أمر إلا إذا اشتدت الصلة بينه  
وبين الناس ، فكان صدى لحياتهم وكانوا صدى  
لاتجاهه وكان مرآة لما يدع فيهم من رأى وخاطر ،  
وما يذوهم به من هذه الآثار الأدبية على اختلاف  
ألوانها ( « ٤ » ) .

( ٤ ) د. طه حسين — فصول في الأدب والنقد — دار  
العارف — مصر .



اذن فمن خلال حرية الكاتب في التعبير يستطيع  
أن يضيف الى رصيد الخبرة الانسانية شيئا جديدا ،  
وهذا ما حاول الدكتور طه حسين أن يفعله في زمن لم  
يكن يعترف بتلك الحرية التي يؤكد على ضرورتها  
طه حسين ، ولا بذلك العدل الاجتماعي الذي يبحث  
عنه من أجل تحقيق حرية الانسان في الفكر والحياة .

## منهج التفكير عند الدكتور طه حسين

( ١ )

قد تكثر النظريات التي يطرحها المفكرون ، فيكون  
فكرهم - ومن خلال هذه النظريات - نظريا فقط ،  
وللمفكر حرية أن يختار بلا جبر .

وطه حسين بوصفه مفكرا من مفكرى العصر  
الحديث لم يترك أفكاره مجرد نظريات تطرح لى  
تضاف الى مئات النظريات الأخرى دونما ترجمة  
أو تطبيق ، بل على العكس تماما ترجم الفكر النظرى

الى واقع على متواجد عندما دعى الى مجانية التعليم  
فأصبح ( العلم كالماء والهواء حق للجميع ) ومن هنا  
نجد ايمانه بأن ( تغيير الأشياء لا يكون بالكلام الذى  
يقال عن اخلاص أو تكلف وعن تفكير واندفاع ، وانما  
يكون بالعمل الذى ينقل الأشياء من طور الى طور ) .

فدعى الى نشر العدل بين الجميع وبحث عن  
وسائل تحقيق الكفاية لأبناء الشعب عندما كان وزيرا-  
للمعارف ، وتحدث عن عذابات أبناء الشعب فى كتابه  
( المذبذبون فى الأرض ) .

— هذا الكتاب تمت مصادرته بعد طباعته لأنه  
حاول فيه أن يؤكد ايمانه بأن حرية التفكير لا تأتى  
هكذا وبلا سابق انذار ، بل لابد أن تسبقها حرية  
اقتصادية .. والحرية الاقتصادية لابد أن تسبقها  
الحرية السياسية فالحرية السياسية لديه لا يمكن  
تحقيقها بدون حرية التفكير ، فحرية التفكير هى أساس  
الحرية .

ومن أجل هذه الفكرة ، اتهم بميله الى اليسارية

بعد صدور كتابه هذا الذي ضاق به جو مصر فنشره  
في لبنان ، وأهداه الى الذين يحرقهم الشوق الى  
العدل ، والذين يؤرقهم الخوف من العدل ، والى  
الذين يجدون ما لا ينفقون والذين لا يجدون  
ما ينفقون (١) .

وقد جاء في كتابه ( جنة الشوك ) ما يدل على  
هذا التسامح القائم على احترام العقل واحترام  
التفكير .

قال التلميذ الفتي لأستاذه الشيخ :

انى أقرأ في بعض ما يقول نيتشه أن  
كثيرا من الناس لا ينبغي أن تصافحهم بيد  
رقيقة ، وانما تبسط اليهم يدا كبرسن الأسد ،  
وأريد أن تكون فيها مخاطب حادة . فمن  
عسى أن يكون هؤلاء الناس .

(١) مع طه حسين - سامي الكيالي - سلسلة اقرأ -

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :

هم أكثر الذين تلقاهم مصباحاً ومسيحاً فيلحظونك  
بعمى ملؤها الود .. ويسمون لك من تغور مشرقاً  
من ورائها الظلمة والعذاب ، وهم الذين يحسنون  
التودد إليك والتلطف لك ، ولا سيما حين تحدث  
الأحداث وتلم الخطوب ولكن نيتشه يابني صاحب  
قسوة وسطوة وعنف فاقراً أن شئت قول الله عز وجل  
« ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » (١) .

وأجدني وأنا أتحدث عن فكر طه حسين وطريقة  
تفكيره أ طرح أسئلة عديدة على نفسي باحثاً عن اجابة  
محددة لها ومركزة في الوقت نفسه .

والأسئلة التي تطفو أمامي وأنا أتعرض لفكر  
الرجل هي تلك :

كيف تتحقق حرية التفكير في بلد لا يؤمن بالفكر  
ولا بالمفكرين من أمثال د. طه حسين ، ولأنه يؤمن

(١) جنة الشوك - طه حسين - دار المعارف .

بحرية التفكير - كما سنرى - فقد تتعارض أفكاره  
- هذه - مع الأحزاب السياسية الموجودة في ذلك  
العصر ، فما هو موقف طه حسين منها ؟؟ وهل تركت  
هذه الأحزاب في نفسه أثرا ؟ أو بمعنى آخر .. هل  
غيرت من طريقة تفكيره ؟؟ ولنبحث أولا : في إمكانية  
تحقق حرية التفكير في بلد لا يؤمن بالفكر ولا بالمفكرين .

بداية أقول : أنه لا بد أن يحدث الصدام بين  
من لا يؤمن بالفكر وحرية التفكير ، ومن يؤمن بالفكر  
وحرية التفكير . لا بد أن يحدث الصدام بين ( طه  
حسين ) بوصفه مفكرا يبحث عن حرية التفكير من أجل  
تحقيق الحرية السياسية والعدل الاجتماعي ، وبين  
السلطة بوصفها الشخص الممنون الذي لا يؤمن بالفكر  
ولا بحرية التفكير طالما أن هذه الحرية سوف تؤثر  
وتكشف اللثام عن وجهه الحقيقي الذي لا يعطى سوى  
الكراهية لأبناء الشعب المطحونين ، الباحثين عن لقمة  
العيش .

وقد تمثلت تلك المواجهة في أول الأمر ضد  
الحكومة ، حكومة ( حسين صدقي ) عام ١٩٣٣ م تلك

الحكومة التي كانت تمثل - في ذلك الوقت - السلطة -  
الرأسمالية والاقطاع المستبد ، فلم يملك ( اسماعيل  
صدقي ) - بوصفه ممثلاً للسلطة - الا أن يصدر  
قراراً بنقل ( د. طه حسين ) من الجامعة الى وزارة  
المعارف . . فيرفض ( طه حسين ) بشدة ولم يجد  
صدقي في النهاية الا أن يمزله نهائياً ولم يجعله هذه  
القرارات مهتراً أو أضعفت عزيمته بل على العكس من  
ذلك ، لم يجد أمامه الا أن يواجه السلطة الرأسمالية  
والاقطاع المستبد والمثلة في حكومة اسماعيل صدقي  
ايضا كانت ، مؤمناً في داخله بحرية الفكر وحرية التعبير،  
فيكتب ويكتب لا يهاب الموت في سبيل ما رسم لنفسه  
من مبادئ سامية حتى استطاع أن يعود الى الجامعة  
مرة أخرى عام ١٩٣٥ م .

هذا عن موقفه تجاه السلطة ، فما هو موقف  
الأحزاب السياسية ( لقد كان طه حسين - كمادته -  
يخالف ما جرت عليه العادة ، ونراه في حياته السياسية  
ينتقل من اليمين الى اليسار كلما تقدمت به السن وكما  
نضجت التجربة . هذا اذا كان يصح أن نسمى

« الأحرار الدستوريين » يميناً ، وأن نسمى الوفد يساراً على نطاق السياسة المصرية ( ١ ) .

وفي مطلع حياة ( طه حسين ) الثقافية انضم الى « حزب الأمة » .

( وعلى الرغم من رجعية هذا الحزب وتمثيله لكبار الاقطاعيين في مصر ممن عرفوا بأصحاب المصالح الحقيقية فان ارتباطه به لم يكن راجعاً الى التكوين الاجتماعي للحزب ، وانما كان راجعاً الى تأثيره بشخصية ( لطفى السيد ) أكبر رأس مفكر في الحزب ، فضلاً عن حرصه وهو طالب خارج من الأزهر على الآراء العصرية المتحررة في الأدب والحياة ( ٢ ) .

يتبقى من تلك الأسئلة التي طرحها على نفسه هذا السؤال :

---

(١) لمى الطيبي - مجلة الثقافة المصرية - العدد رقم ٢/١٤ ص ٤٤ .  
(٢) جلال المعري - ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة - الهيئة العامة للكتاب ص ١٢٢ .



— هل غيرت هذه الأحزاب من طريقة تفكيره ؟؟

نقول أن طه حسين كان يعرف كيف يكون الفكر حراً ، وكيف يكون التعبير حراً — كذلك — وإيمانه بهذه الحرية جعله يواجه الهجوم الضار الذي واجهه أثر صدور كتابه ( في الشعر الجاهلي ) •

فحرية الرأي — لديه — لا تنفصل عن الحياة الصالحة فهي في ضرورتها كالحرية السياسية وكالحرية الاجتماعية •

وطه حسين يقرر أنه عندما تختلط حرية الرأي بالسلطة السياسية بحيث تكون حرية التعبير هذه مرتبطة بموافقة السلطة عليها ، والثناء على من يكتبون لتأييد السلطة السياسية ، عندئذ فإن المؤرخين جميعاً ان كانوا خليقين بهذا الاسم يؤثرون أن يبيعوا القول أو الكراث على أن يكونوا أدوات في أيدي السياسة يفسدون لها العلم والأخلاق ( ٢ ) •

(٢) طه حسين — في الأدب الجاهلي — دار المعارف — ص ٥٨ •

اذن يتضح لنا بعد آخر وهو : أن حرية التعبير  
لديه - عندما تأخذ شكلا أدبيا فلا بد أن تنفصل  
- بالتالي - عن السلطة السياسية •

فالحرية لديه في حاجة الى أن يدافع عنها  
أنصارها والعدل في حاجة الى أن يدافع عنه أنصاره •

اذن فحرية الرأي قد دفعت الى المحافظة على  
كرامته كإنسان مفكر ( فقد حدث ، وهو عميد كلية  
الآداب عام ١٩٣٢ أن طلب اليه « اسماعيل صدقي  
باشا » رئيس الوزراء وهو حاكم شديد البطش  
والجبروت أن يمنح درجة الدكتوراه الفخرية الى غير  
واحد من السياسيين المالكين لمهده وللملك بصورة  
خاصة • ويدرس له حسين هؤلاء الناس ، فلا يجد  
واحدا منهم يستحق هذه الرتبة العلمية • فيقف من  
هذا المطلب موقفا صلبا أي لا يجمع ولا يخنع ،  
فيرفض باباء ثم يذهب الى وزير المعارف ( حلمي عيسى  
باشا ) ويقول له بالحرف الواحد : ان الجامعة تعطى  
درجة الدكتوراه الفخرية بوحى من نفسها لا بوحى من

الحكومة ، وأنها لا تستطيع أن تمنح هذه الدرجة  
لأفراد حزبيين (١) .

والتاريخ الأدبي للدكتور طه حسين يكشف لنا أنه  
لولا التحالف بين الأحرار الدستوريين والوفد لكان  
الهجوم على ( طه حسين ) قد اشتد وذره رغم وقوف  
حزب الوفد في ذلك الوقت لمهاجمة آراء طه حسين  
التحريرية والثورية التي جاء بها في كتاب ( في الشعر  
الجاهلي ) ، ولأن طه حسين مرتبط بأستاذه ( أحمد  
لطفى السيد ) والذي كان تابعا لحزب الأحرار  
الدستوريين فإنه انصرف عن ( حزب الوفد ) واتجه إلى  
حزب الأحرار الدستوريين . ويعمل هذا الانصراف  
نتيجة لموقف فكرى يتبناه ، ويشعر بأنه سوف يتحقق  
لو أنه انضم إلى حزب الأحرار - ويعمل رجاء النقاش  
هذا الانصراف بأنه نتاج أسباب شخصية لا ترتبط  
بموقف فكرى « ولاشك أن هذا الموقف من جانب  
طه حسين وفي التقسيم السياسى السليم كان موقفا

(١) سامى الكيالى - مع طه حسين - دار المعارف - ١٩٢١ -  
العدد رقم ٣٧٥ - ص ١٤٣ .

خاطئا ولا بد من النظر اليه على أنه نقطة ضعف في تاريخ  
طه حسين « (١) » •

ورغم هذا - وعلى سبيل المثال وكدليل على فكره  
المتحرر - نراه يسخر بالعقلية الرجعية التي تحاول  
أن تتعد عن أوروبا فيقول :

( لو قال قائل : انا قد ورثنا عن آباؤنا  
وأجدادنا حرب الكر والفر وهذه العدة التي تنحصر  
في السيف والرمح والقوس والسهم والورقة الدرع ،  
فلندع للأوربيين نظامهم الحربي وما استحدثوا من  
ألوان السلاح وأدوات التدمير ، ولنكتف بجيوش  
تشبه في عددها جيش خالد بن الوليد أو جيش بيبرس  
او قال قائل هذا الكلام للقيه المصريون جميعا  
بالضحك والسخرية والاستهزاء ، وكان المحافظون  
وأنصار القديم أشد الناس التواء عليه وازورارا  
عنه ( ٢ ) •

(١) رجاء النقاش - أدباء معاصرون •

(٢) سامي الكبيسي - مع طه حسين - سلسلة انوار  
العدد ٣٧٥ ص ٧٩ •

( ٢ )

من أين أستقى ( طه حسين ) فكره ؟؟ أو بمعنى آخر ، ما هى العوامل التى عملت على بلورة طريقة التفكير لديه بشكل معين ؟؟

بداية نحب أن نحدد أن الدكتور ( طه حسين ) قد أستقى فكره القائم على حرية التفكير والتعبير - كما سبق أن بينا - من خلال عدة عوامل ومنايع شتى .

١ - اتصاله بلطفى السيد .

٢ - ذهابه الى باريس والتقاؤه بأدبائها وفنانيها .

٣ - تعرفه على خصائص المذهب العقلاني الذى استحدثته « ديكارت » .

والدكتور ( طه حسين ) كان يتخذ من المنهج العقلاني منهجا للتفكير هذا المنهج الذى يفرض على الفكر أن يختبر الآراء السائدة سواء على المستوى الشعبى العادى أو فى الأوساط العلمية أو كليهما معا بذهن ناقد ، لا ينقاد وراء سلطة القدم أو الشهرة

ولا يقبل الا ما يبدو له مقنعا على أسس عقلية وعلمية  
سليمة ولا يعنى ذلك أن يقف المرء موقف العداء  
أو العناد المتعمد من كل ما هو شائع ، بل يعنى اختيار  
الآراء الشائعة والخضاعها للفحص العقلى الدقيق (١) •

فهذا المنهج الذى يقوم على التنظيم والبحث عن  
الأسباب والمسؤولية واليقين والدقة والتجديد هو منهج  
طه حسين فى البحث والتفكير •

وهذا المنهج - بعد فى حد ذاته - تمهيدا للأفكار  
الاخترائية التى أصبحت تيارا من تيارات الثقافة  
المعاصرة •

ولقد كان الدكتور ( طه حسين ) مرتبطا بالفكر  
والسياسة معا شديد العلاقة بالأستاذ أحمد لطفى السيد  
مفكر حزب الأمة وأستاذ الأحرار الدستوريين ، فقد  
كان ( لطفى السيد ) مؤمنا بالقدرة العقلية أكثر من

---

(١) د. فؤاد زكريا - التفكير العلمى - عالم المعرفة - الكويت  
المجلد ٣ ص ٢٨٠ - ٢٨١ •

إيمانه بالقدره العاطفيه ، ومن هنا التقى فكر ده طه حسين بفكر لطفي السيد الذي كان ينادى بالمذهب العقلاني في التفكير ، هذا المذهب الذي يقوم على مجرد المفكر من كل الأهواء الذاتية والشك في كل الآراء المسبقة للوصول الى يقين العقل ، وكذلك فانه يقوم على الربط بين المعنى والشيء وقيمة هذا الشيء وفائدته .

بهذا المنهج الذي استحدثه ( ديكرارت ) استمد ده طه حسين أسس تفكيره العقلاني وشغف بفلسفة ( ديكرارت ) وتأثر بها دون شك ونراه يقول :

( أريد أن أصطنع هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكرارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قبل فيه خلوا تاما ( ١ ) .

(١) د. طه حسين - في الأدب الجاهلي - دار المعارف .

وعندما تحدث ده طه حسين عن (ديكارت) في كتابه (من بعيد) كان حديثه يوضح مذهب الشك واليقين ساخرا من شيوخ الأدب القديم وكانت سخريته تلك ولادة الضجة التي أثبتت حول كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أراد منه أن يعالج الأدب القديم معالجة علمية ، باحثا عن حقيقة هذا الشعر القديم : وحقيقة قائله وحقيقة نسبته الى من نسب اليهم ، فكان يشك في كل ما بين يديه من أجل الوصول الى حقيقة تتفق مع المنطق والعقل .

« والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، فقد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرا وأنه قد جود العلم والفلسفة تجويدا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم ، والفنانين في فنونهم ، وأنه هو الطبع الذي يتميز به هذا العصر الحديث » (١) .

وبجانب المنهج الديكارتي هذا ، والذي اتخذته

(١) المرجع السابق .



( د. طه حسين ) سبيلا لتفكيره نجده يختلط بأدب فرنسا ، فأحب الشاعر الفرنسي ( بول فاليري ) لأنه يحترم العقل ، وقرأ قصص ( فولتير ) وأحبها وتعرض لأدب ( مدموازيل دي لسبيناس ) وقرأ ( سارتر ) وناقض أدبه ومما لاشك فيه أنه تأثر بكل هذا في كتاباته الأدبية على وجه التحديد :

( الحب الضائع ) ( دعاء الكروان ) حتى أن منهجه التاريخي في النقد قد استمدته من أصول المدرسة الفرنسية التي تزعمها الناقد : ( هبوليت تين ) وحرص فيها على تعريف الأوروبيين بعلم التاريخ وعلاقته بالحياة الاجتماعية ، ومؤدى نظريته أن الإنسان من صنع الوراثة والبيئة ويحدد طه حسين أن هناك فريقين أحدهما يرى أنه لا بد أن يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعا للحرية ، لا متبوعا ، والفريق الآخر يريد أن يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية ناقلة تتحقق أن سمح العدل بتحقيقها ، ويضحى بها إذا لم يكن بد من التضحية بها في سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة بين الناس .

ويبقى الصراع — كما يحدده طه حسين — قائما  
بين الحرية والعدل ويبقى صراع الانسان وصراع الأمم  
والشعوب بين أيهما يختار .

— ولكن ما هي وجهة نظر الدكتور العميد في  
هذه المسألة؟؟ وهل حدد لنفسه اختيارا بين المذهبين؟؟

— لم يضع الدكتور طه حسين رأيا محددًا في  
هذه المسألة حتى أنه عندما كتب (المعذبون في الأرض)  
وتحدث عن شوق هؤلاء إلى العدل وحاجتهم إلى  
الحرية ، لم يبحث عن البديل ولم يوضح الوسائل  
— كمفكر — التي عن طريقها ، ومن خلالها يستطيع  
هؤلاء القوم الذين ( يحرقهم الشوق إلى العدل ) أن  
يجدوا العدل الذي يبحثون عنه لا بالقول ، وهذا في  
رأى هو الخطأ الذي وقع فيه طه حسين حين  
تحول إلى مرحلة أخرى ، هي مرحلة التنظير في الأدب .  
حاول أن يجمع بين المذهبين عندما يحدد أن هناك  
« فرقا خطيرا جدا بين الاستمتاع بالحرية والاستمتاع  
بالعدل ، فالاستمتاع بالحرية يثير هذه اللذة المتعبة

لأنه يدفع الى العمل والنشاط ويفرى بالكد والجهد ،  
ويمنع الانسان من أن يريح ويستريح أما الاستمتاع  
بالعدل فمريح حقاً ، لأنه يقتل الطمع ويفرى بالرضا  
ويزين القناعة في القلوب أو قل يفرض القناعة على  
القلوب ، فأى غرابة في أن يكون أشد إثارة للحرية  
التي تملؤه قوة ونشاطا وتدفعه الى الأمل والعمل ،  
وتمسكه في هذا القلق الحلو المتصل الذي لا يعرف  
الرضا ولا يحب الاطمئنان منه للعدل الذي لا يثير قوة  
ولا نشاطا ، ولا يدفع الى مزيد من أمل أو عمل «(١)» .  
بالشك فيما هو قائم للوصول الى يقين أكيد يحكمه  
العقل ولأنه يشجع هذا فهو ( يطالب أن تكون تلك  
المفاهيم عن الحرية والعدالة والديمقراطية من الأهمية  
بمكان حتى لا يصحح أن يعيش الانسان بدونهما  
والا فلا فائدة للعقل ان لم يفكر ، ولا فائدة من  
التفكير ان لم يقيم على أسس علمية منطقية ، ومن خلال  
تفكيره هذا أخذت الأسئلة تلح عليه بالاجابة وعندما

(١) المرجع السابق .

تطفو على السطح أمامه يتناولها بالبحث والتجسس  
حتى يصل الى شيء محدد يقره عقله ويؤيده تفكيره .

— تساءل أبيض العالم الى تحقيق العدل أم الى  
تحقيق الحرية ولماذا يتاح النعيم لفريق من الناس  
ويحظر على فريق آخر ؟؟ لماذا يفرق بين الناس في  
الاستمتاع بالحياة على حين يسوى بينهم في الدخول  
الى الحياة والخروج منها ؟؟

ويعمل دة طه حسين تفكيره في هذه الأسئلة  
المطروحة أمامه لكي يجد اجابة تعفيه عناء التفكير فيحدد  
أنه « من الخطأ أن تظن أن هذا الصراع بين العدل  
والحرية مقصور على بيئة انسانية دون بيئة أخرى  
أو على مكان من العالم المتحضر دون مكان وانما  
الواقع الذي نستطيع في كل وقت أن نلاحظه هو أن  
هذا الصراع قائم في البيئات الانسانية المتقفة كلها  
وفي أجزاء العالم المتحضر كلها أيضا ، يقوى ويعنف  
حيث ترقى الحضارة وتتفوق ويضعف وتخف وطأته  
حيث تركد الحضارة ، وتميل الى الخمود ولكنه موجود

دائماً ومتصل على كل حال • ويكفى أن ننظر الى  
العالم الذى نعيش فيه اليوم لتبين أن الصراع بين  
الحرية والعدل عنيف الى أقصى غايات العنف « (١) •  
وبذلك يكون الفن صورة للفرد وليس تصويراً  
للذات وإنما هو - فى حقيقته - تعبير عن الجنس ،  
وعن الزمن • ، وعن المكان •

- ومن هنا انطلق ( طه حسين ) بمنهجه التاريخى  
القائم على هذه العناصر الثلاثة : الجنس والبيئة  
والمصر • والذى لا يعنى بالأدب لا من حيث هو  
مرآة للمجتمع ، ولا يهتم بالشاعر وحياته الا بالقدر  
اللازم لفهم شعره • فالإنسان بمواهبه ومعنوياته ان هو  
الا أثر من آثار البيئة بمعناها الواسع لا يكاد يفترق  
عن الحيوان والنبات من انتفاء الفكر وانعدام  
الارادة (٢) •

(١) د. طه حسين - الوان - دار المعارف .

(٢) جلال المشرى - ثقافتنا بين الاسالة والمعاصرة ص ١٦ .

من خلال طريقة تفكير طه حسين المعتمدة - كما تبين لنا - على المنهج العقلاني والمنهج الديكارتي ، من خلال هذه الطريقة العلمية في التفكير هل كانت لطله حسين آراء محددة حول الحرية .. العدل .. الديمقراطية بما تشكله من أهمية خاصة حول بناء فكر مستنير قائم على العقل ؟؟ ، من الواضح أن الدكتور كان منشغلا أشد ما يكون الانشغال بمثل هذه المعاني ، لما وجدته من أهميتها في تشكيل العقلية المعاصرة ، وتشكيل الفكر القائم على أسس علمية لا مجرد أن يضع مفاهيم الأشياء ، ولا شيء غير هذا ، وأنا ليجعلها سلوكا يعتاده الناس في حياتهم ومعيشتهم ، ولأنه يشجع العقل على التفكير ، ويطالب به - ولكن هل للحرية صلة بالديمقراطية - أو العكس - في مفهوم طه حسين ؟؟

كان طه حسين يؤمن أشد ما يكون الإيمان بالديمقراطية واشترط أن تتوسع في معناها متجاوزين بها حدودها السياسية التي ترسم لها في كتب السياسة

والقانون ، وتصيح حرية الكلمة والتعبير هي المقدمة الأولى لفهم معنى الديمقراطية ، وممارستها ممارسة فعلية ، فهو يؤمن بأن الديكتاتورية لا تعرف حدودا للتسلط والاستبداد وانما تتدخل في كل شيء وتفرض نفسها على كل شيء ، وهذا ما حدده بنفسه عندما تعرض بالمتناقضة لكتاب ( جان بول سارتر ) « ما الأدب » ، وحدد في كتابه ( مستقبل الثقافة في مصر ) أنه ( ليس يكفي أن يكون الفرد قادرا على أن يتنفس ويتحرك ليس غير ، وليس يكفي اذا بلغ الفرد طورا من أطوار الحياة المادية ، أن يقف عنده ولا يعدوه حتى يموت دائما يجب أن تمكنه الديمقراطية من أن يحوزه الى غور آخر خير منه ) .

ب فهو يبحث عن الحرية بنوعها : الداخلية والخارجية .

فالحرية الداخلية قوامها النظام الديمقراطي ، والحرية الخارجية .. ( قوامها الاستقلال الصحيح والقوة التي تحيط هذا الاستقلال ) وكمادة دة طه

حسين في طرح الأسئلة على نفسه باحثاً عن اجابة من خلال التفكير السليم فانه يطرح هذا السؤال « ما هذه الحرية المطلقة التي يستمتع بها هذا العقل اذا فكر ، وما هذا العجز المطلق الذي يضطر العقل اليه اذا أراد أن يعمل أو يدفع الى عمل (١) ومن خلال هذا السؤال المطروح ، نعرف أن طه حسين يرفض قدرة العقل المطلقة مؤكداً أن هناك عوامل أخرى تسيطر على التوازي مع العقل ولا تنفصل عنه وهذه العوامل تتمثل في الادراك والعاطفة والشعور » •

---

(١) مع أبي اللؤلؤ في سجنه - طه حسين - دار المعارف - القاهرة .





## الفصل الأول

---

### ( المذبذبون فى الأرض ) والسؤال

أبيض العالم إلى تحقيق العدل أم إلى  
تحقيق الحرية ؟؟

أبيض العالم إلى تحقيق العدل أم إلى تحقيق  
الحرية ؟؟ ولماذا يتاح النعيم لفريق من الناس ويحظر  
على فريق آخر ؟؟ لماذا يفرق بين الناس في الاستمتاع  
بالحياة على حين يسوى بينهم في الدخول إلى الحياة  
والخروج منها ؟؟

أستلة طرحها الدكتور العبيد على نفسه قبل  
أن يطرحها على قارئه .. طرحها من أجل أن يعمل فيها

عقله ويشغل بها تفكيره حتى يصل الى الحقيقة التي  
يقرها عقله الذي يحترمه أشد ما يكون الاحترام  
فيحدد أنه ( من الخطأ ) أن تظن أن هذا الصراع بين  
العدل والحرية مقصور على بيئة انسانية دون بيئة  
أخرى أو على مكان في العالم المتحضر دون مكان ،  
وانما الواقع الذي نستطيع أن نلاحظه في كل وقت هو  
أن هذا الصراع قائم في البيئات الانسانية المثقفة كلها ،  
وفي أجزاء العالم المتحضر كلها ، أيضا ، يقوى ويعنف  
حيث ترقى الحضارة وتتفوق ، ويضعف وتخف وطأته  
حيث تركد الحضارة وتميل الى الخمود ، ولكنه موجود  
دائما ومتصل على كل حال ، ويكفي أن ننظر الى  
العالم المتحضر الذي نعيش فيه اليوم لتبين أن الصراع  
بين الحرية والعدل عنيف الى أقصى غايات العنف (١) .

ويحدد ( مله حسين ) أن هناك فريقين أحدهما  
يرى أنه لا بد أن يسلك طريق الحرية على أن يكون  
العدل تابعا للحرية لا متبوعا والفريق الآخر يريد أن

(١) د. مله حسين - الوان - دار المعارف ص ٢٣٥ .

يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية نافذة ، تتحقق  
أن سمح العدل بتحقيقتها ويضحي بها إذا لم يكن بد من  
التضحية بها في سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة  
بين الناس ، وظل الصراع كما يحدده ( طه حسين )  
قائما بين الحرية والعدل .. ويبقى الإنسان وصراع  
الأمم والشعوب بين أيهما يختار .

وقد يتساءل الزارى .. ما الذى يجعلنى أقدم  
هذه القضية بداية لما أكتبه عن كتاب ( المذبذبون في  
الأرض ) أقول السبب هو هذا السؤال الذى طرح  
نفسه أمامى بعد ما انتهيت من قراءة هذا الكتاب  
والسؤال هو : ما هى وجهة نظر « د. طه حسين » في  
هذه القضية ؟ وهل حدد لنفسه اختيارا بين الطريقين :  
الحرية والعدل ؟؟

أقول - وربما أكون مخطئا في القول - ولكنها  
الحقيقة التى فرضت نفسها على وأنا أتعرض لهذه  
القضية بالدراسة والبحث ، أن ( طه حسين ) لم يضع  
رأيا محددا في هذه المسألة حتى في كتابه هذا الذى

أهداه الى الذين يحرقهم الشوق الى العدل والذين  
يؤرقهم الخوف من العدل والى الذين يجدون  
ما ينفقون والذين لا يجدون ما ينفقون .. تحدث عن  
شوق هؤلاء البؤساء فى الأرض الى العدل ، وحاجة  
هؤلاء - كذلك - الى الحرية ، ولم يبحث عن البديل  
ولم يضع الوسائل - كمفكر - والتي عن طريقها ،  
ومن خلالها يستطيع هؤلاء القوم الذين ( يحرقهم الشوق  
الى العدل ) أن يجدوا العدل الذى يبحثون عنه  
لا بالقول ، لكن بالفعل ، ففرق كبير بين العمل بالقول ،  
والعمل بالفعل ، وهذا - فى رأى - هو الخطأ الذى  
وقع فيه الدكتور العميد ، حين تحول الى التنظير بدلا  
من الدعوة الى الفعل الايجابى الذى يستتجبه الشوق  
الى العدل والبحث عن الحرية فى عهد ضاع فيه العدل ،  
وتأثت الحرية .. هو يحاول أن يجمع بين الطريقتين :  
طريق العدل وطريق الحرية عندما يحدد أن هناك  
( فرقا خطيرا جدا بين الاستمتاع بالحرية ، والاستمتاع  
بالعدل فالاستمتاع بالحرية يثير هذه اللذة المتعبة ، لأنه  
يدفع الى العمل والنشاط ، ويغرى بالكد والجهد ،

ويمنع الانسان من أن يبيع ويستريح أما الاستمتاع  
بالعدل فمريح حقا ، لأنه يقتل الطمع ويغري بالرضا ،  
ويزين بالقناعة في القلوب ، أو قل يفرض القناعة على  
القلوب فرضا فأى غرابة في أن يكون أشد ايشارا  
للحرية التى تملؤه قوة ونشاطا وتدفعه الى الأمل  
والعمل ، وتمسكه في هذا القلق الحلو المتصل الذى  
لا يعرف الرضا ولا يحب الاطمئنان ، منه الى العدل  
الذى لا يثير قوة ولا نشاطا ، ولا يدفع الى مزيد من  
أمل أو عمل •

ولكن كيف تتناول ( د. طه حسين ) هذه  
القضية في كتابه « المذبذبون في الأرض »؟؟ والذى  
اتهم بسببه بالشيوعية ، وظلت هذه التهمة لصيقة به  
حتى رفضها ( مصطفى النحاس ) وعين وزيرا للمعارف  
وتم نشر الكتاب في مصر بعد أن تم نشره في بيروت  
على أثر مصادرته في ( ادارة المطبوعات ) فهو في هذا  
الكتاب وتحت عنوان ( خطر ) يقرر أنه لابد ( أن نعيد  
النظر في نظامنا الاجتماعى كله ، فيما تجبى الدولة من  
الضرائب وفيما تمنح الدولة من المرتبات ) •

اذن فلكي يتحقق العدل أو الحد الأدنى منه لابد  
من شيئين يتم تحقيقهما :

الشيء الأول : مضاعفة الضرائب على الأغنياء .

الشيء الثاني : مضاعفة المرتبات التي تمنح  
للموظفين .

بهذين الشيئين نواجه ( الخطر ) الذي يحدث  
بالموظفين العاملين في الحكومة بعد ما ضرب لنا مثلا  
بالموظف الذي يعول أربعة عشر شخصا ومرتبه  
اثني عشر جنيها ( فهو يستدين من جهة حتى لا يجد  
الى الاستدانة سبيلا ، وهو يلتبس الاحسان من كل  
طرف فلا يظفر بما يلتبس من الاحسان فليس أمامه  
الا أن يقترب الائم ليعيش ، وقد تكون الحاجة الى  
الغذاء والكساء أقوى من خلقه ودينه فيقترب الائم ،  
ولكن القانون له بالمرصاد ، فهو ان فعل تعرض  
للعقوبة وتعرضت أسرته ليؤس تضاعفه الظروف  
اضعافا . واذن فليصبر ، ولكن الصبر لا يطعم الجائع  
ولا يكسو العارى ولا يسكت الصبي الذي يصبح

ملتصبا طعامه حين يعرضه الجوع ولا يداوى المريض ،  
ولا يغنى عن الذين انتهوا الي الدرك الأسفل من  
الحرمان شيئا ) •

هو هنا يصرح بشيء يحسبه المتعصبون خروجاً  
على الدين الذى دعا الى الصبر حتى يأتى الفرج ،  
ويحسبه هو حجة هزيلة لا يتمسك بها سوى الضعفاء  
فتتضح حقوقهم ويأتى الخطر الذى لا راد له •

هذا مفهوم ثورى لابد أن نحسبه للرجل ، حتى  
نستطيع أن نحدد فيما بعد اجابة السؤال الذى يطرحه  
هذا الكتاب - الذى صدر قبل ثورة ٢٣ يوليو  
والأوضاع فى مصر كانت أشد ما تكون من القهر والظلم  
والاستبداد والبؤس - والسؤال هو :

هل يعتبر هذا الكتاب تصوراً ثوريا لانفعالات  
مجتمع ما قبل الثورة؟؟ وهل يعتبر ده طه حسين - ومن  
خلال هذا الكتاب كذلك - صاحب فكر ثورى  
اشتراكى؟؟

ان هذا المفهوم الثورى عن ( الصبر ) والذى



حدده له حسين لم يتحدد هكذا من فراغ ، بل بعد ما تبين أن هذا الاستسلام ، وهذا التعلق الغير حقيقى بهذه الكلمة فى موضع ليست فيه بذات نفع بعد كل هذا حدد أن هذا الاستسلام القهرى هو سبب الشقاء والشقاء يجلب من المفسد والآفات ما يجعلنا نبحث عن طريق للخلاص منه وعدم التعرض له ، بجلب البدائل وتنمية الأسباب التى تساعد على البقاء .. ( فانتشار اليأس حتى من روح الله ، وانتشار الذلة والمسكنة والهوان ، وانتشار الأذعان للظلم والاستسلام للعصف والافتقار للاستبداد بالحريّة والكرامة ، والأزدراء لكل ما يجعل الإنسان انسانا فضلا عن الأزدراء لكل ما يجعل الإنسان انسانا متحضرا ممتازا . كل هذه الآفات والمخازى ليس لها مصدر الا هذا الشقاء ) ص ١٥٤ .

ونظن أنه بعد كل هذا ، لابد أن نتيقن أن الرجل على حق فى مفهومه الثورى عن الصبر ، فطالما أن الصبر - فى هذه الحالة - يؤدى الى المفسد ، وطالما يتخذ القوم ( شعاعة ) يعلقون عليها مفاسدهم وآفاتهم

فالثورة عليه أمر واجب والا مازال الخطر .. ولأينا  
( موظفي الحكومة يطلبون الصدقة ويلتسسون  
الاحسان ) • ونحن نجد أن الطبقة البرجوازية - في  
تلك الفترة - كانت في بدء التكوين وكانت مهددة  
الانحسار .. مهانة .. وإن دل ذلك على شيء فأننا  
يدل على وجود طبقة أخرى أشد قهرا وتسلطا ،  
وهي طبقة الاقطاع وعندما نحدد أن الطبقة البرجوازية  
تعاين ما تعاناه في بداية التكوين فما بالك بالطبقة  
الدنيا والتي كانت سائدة وتمثل السواد الأعظم من  
المصريين • مجتمع طبقي أزعج ده • له حسين الفكر  
والأديب فجعله يقف محذرا أنه ليس ( الى الإصلاح  
الاجتماعي من سبيل الا اذا وجدت الاداة السياسية  
الصالحة التي تستطيع أن تنهض بعيشه وتنقذه من  
مشكلاته ) ثم يطرح سؤاله ( فهل ترى أن مصر تملك  
في هذه الأيام أداة سياسية صالحة تفككتها من محاولة  
هذا الإصلاح ؟؟ ) ص ١٥٦ •

يطرح ( ده • له حسين ) هذا السؤال ولا يجب  
عليه لأنه يعلم أن القارئ يعرف أن العكس صحيح •

وهو بهذا الأمر يعطى مفهومًا ثوريًا آخر وهو ضرورة  
صلاحية السلطة السياسية حتى يحدث الإصلاح ،  
وهذا المفهوم أو هذه الرغبة في حد ذاتها تعد تمهيدا  
لفعل ثورى تحقق فيما بعد بثورة ٢٣ يوليو ، ولكن  
الخطر الذى أجد أن أستاذنا العميد قد بينه في المقال  
السابق من هذا الكتاب والذى يحمل نفس الكلمة  
عنوانا له ، قد قل تأثيره فيما بعد عندما أراد أن يأتى  
بنماذج تطبيقية تؤكد على ضرورة مساعدة الأغنياء  
للفقراء .. وأجد أنه بهذا التأكيد لا يعمل على تذويب  
الفوارق بين الطبقات ، بالقدر الذى يعمل به على  
تثبيت وضعية هذه الطبقات ، وبعد أن يأخذ كل ذى  
حق حقه .

ولم أكن أطالبه بالعمل على إزالة هذه الطبقة  
والدعوة الى المساواة فهو أمر كان من الصعوبة بـكان  
أن يتحقق في واقع تحكم فيه طبقة الاقطاع ..  
ولو كان قد فعل هذا لأصبح ثوريا بكل ما تحمله هذه  
الكلمة من معنى .. ولأصبح بطلا من هؤلاء الذين  
يتخذون رمزا للبطولة .. وهناك فرق - بالطبع - بين

الرجل الذى يحول مفاهيمه الى فعل ثورى ، ويصبح  
بطلا ثوريا ، وبين الرجل الذى يضع هذه المفاهيم  
للتغيير ، لكنه - فى نفس الوقت - ليس مطالباً بأن  
يقوم بالفعل الثورى فيصبح مفكراً يحمل المفاهيم  
الثورية التى تعمل على التغيير ولو بعد حين .

وهذا هو موضع ( طه حسين ) بين النمطين ، ولكن  
المأخذ الذى نأخذ عليه - بعد التحفظ الذى  
حددناه - هو أنه كان عليه أن يقيم تلك الطبقة الدنيا ،  
باحثاً عن حقوقها ، عن العدل الذى تريده والحريّة  
التي تبحث عنها ، من خلال المفهوم الذى قمنا بتحديدده  
من قبل ، وهو أن هذه الطبقة الدنيا قد أسرفت في  
الوجود فأصبحت لاسرافها هذا وكأنها ليست  
موجودة .. مهملّة كان عليه أن يدعم موقفها حتى  
تسود ، لا أن تصبح تابعة للطبقة العليا التى تمن عليها  
بما تعتبره صدقة وإحساناً !!

في المقال الثامن الذى يحمل عنوان ( تضامن )  
يضع دة طه حسين المفاهيم الأولى للفكر الاشتراكي حلاً

يجلب المساواة والعدالة مجدداً أن ( الله لم ينشر ضوء الشمس ليستمتع به فريق من الناس دون فريق ، والله لم يرسل النسيم لتتنفسه طائفة من الناس دون طائفة ، والله لم يجر الأنهار ولم يفجر الينابيع لتشرب منها جماعات من الناس وتظلم إليها جماعات أخرى والله كذلك لم يخرج النباتات من الأرض ليشبع منه قوم ويجوع آخرون ) .

ويقرر أن الكل يتساوى أمام الطبيعة ( لقد أسخ الله نعمته ليستمتع بها الناس جميعاً ) فهو يقرر - هنا - مبدأً للاشتراكية أقره الاسلام وهو تمتع الكل بالخير المعطى أو بمعنى آخر أكثر تحديداً « العدالة في التوزيع » ويضرب مثلاً لتأكيد هذا التضامن عندما يذكر عام الرمادة ، مؤكداً به أن التضامن الاجتماعي سبيل من سبل الإصلاح ، ويضرب مثلاً للحاكم الذي يطبق هذا التضامن على نفسه قبل أن يطبقه على الرعية « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ( رأى المسلمين لا يجدون السمن إلا في مشقة وجهه ، فحرم على نفسه

السمن حتى تجده عامة الناس وفرض على نفسه الزيت والخبز الجاف فلما ثقل عليه الزيت ظن أنه ان طبخ له فقد يكون أخف على معدته احتمالا فأمر أن يطبخ له بالزيت ، وأكله مطبوخا فكان أوجع له وأعسر هضما حتى تغير لونه وأسود وجهه وكان شديد البياض ، ثم جعل يطعم الناس على الموائد العامة ويجلس معهم الى هذه الموائد يأكل مما يأكلون منه ( ص ١٦٠ •

وكأنى بالدكتور العميد يريد أن يقول أنه لا بد أن يعيش الحاكم معيشة قومه لا يترف وهم لا يترفون ، يجد ما ينفق وفي نفس الوقت هناك قوم لا يجدون ما ينتفون .. هي عدالة الاسلام اذن .. ( فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وأن يكتسبوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظالمون ويكتسب العارون من المعسرين وعلى الدولة أن تقوم على هذا كله بسلطان القانون ) •

فهو هنا يؤكد شيئا جديدا يضاف الى جملة الأشياء التي تضاف الى مفاهيمه المحددة ، وهو أنه

لكى يوجد العدل لابد أن توجد القوة ، والقوة  
عنده ليست قوة السلاح أو العنف ، ولكنها قوة  
القانون ، الذى لابد له أن ينصف الفقراء فانه ( من  
الحق على الدولة أن تعلم البخله كيف يكون الكرم  
والجود بسلطان القانون اذا لم يصدر عن نقطة  
الضائر وحياة النفوس ) ص ١٦٤ •

وده مله حسين عندما يدعو الى هذا التضامن  
الاجتماعى نراه وكأنه يعلم أن هناك من يدبرون له  
المكائد ، وسوف يتهمون بالالحد ، والشيعوية ومن  
أجل أن يقطع عليهم ظنهم هذا ويكشف سوء نيتهم  
تلك فانه يقرر أن هذا التضامن الاجتماعى الذى ينبغى  
أن يوجد ( لا يقوم على الاشتراكية ولا على الشيوعية )  
وانما يقوم على قول الله عز وجل « ان الله يأمر بالعدل  
والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر  
والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » •

ويضرب مثلا آخر لهذا التضامن الاجتماعى فى  
مقاله ( التاسع ) الذى كتبه تحت عنوان ( ثقل الغنى )

والذى يتعرض فيه لشخصية اسلامية أخرى ولكنها شخصية ذات غنى ومال .. وهذه الشخصية هي عبد الرحمن بن عوف الذى كان يقول قوله الشهير ( لقد رأيتني وما أرفع حجرا الا ظننت أنى سأجد ذهباً أو فضة ) وعلى الرغم من هذا فقد كان ( من أكبر المسلمين تصدقا ، ومن أسخاهم بماله ومن أوصلهم للرحم ومن أبرهم بالناس \* أتفق حياته كلها مستثمرا لماله متصدقا به وكان تصدقه لا ينقص من ماله وأنا يزيد فيه ويضاعفه اضعافا كأننا قضى الله ألا يجزيه عن صدقته فى الآخرة وحدها والا يضاعف فرصة فى الجنة وحدها وأنا يكفل له ثواب الدنيا والآخرة جميعا ) ص ١٧١ .

ومن خلال هذه الشخصية الاسلامية السخية يوجه الدعوة الى أغنياء مصر للنظر الى ما حولهم من يأس وشقاء ، مؤكدا على وجود هذا التضامن الاجتماعى الذى لا ينطلق من أيديولوجية معينة بقدر ما ينطلق أساسا من ذلك المفهوم الذى حدده الدين ( فليُنظر



أغنياؤنا إلى ما حوالهم من بؤس وشقاء ووباء وموت ،  
وليفكروا في أن أموالهم عارية مردودة ، وفي أن الذين  
يقترضون الله قرضا حسنا يضاعف لهم قرضهم يوم  
القيامة ، وفي أن الذين يكتنزون الذهب والفضة  
ولا ينفقونها في سبيل الله قد بشروا بعذاب أليم ) .

اذن فالدكتور طه حسين ، يؤكد مفاهيمه تلك  
من منطلق ديني وليس من منطلق إيمانه بأيدولوجية  
معينة ، الأمر الذي يجعلنا نرد على هؤلاء الذين  
يوصمونه بوصمة الالحاد والشيوعية وهو بعيد عنها  
كل البعد .. والا ما هو الداعي إلى استشهاده من حين  
إلى حين بآية أو أكثر من آيات كتاب الله « القرآن  
الكريم » ؟؟

ويستمر الدكتور طه حسين في ضرب الأمثلة التي  
تؤكد على ضرورة التضامن الاجتماعي ، منطلقا أيضا  
من الجانب الديني فيتحدث في مقاله العاشر وتحت  
عنوان ( سخاء ) عن شخصيتين من شخصيات الإسلام  
وهما « عثمان بن عفان » و « طلحة بن عبد الله » .

فمن « عثمان بن عفان » يتحدث عن تلك الفترة التي أجذب فيها أهل المدينة أيام أبي بكر ( حتى ارتفعت الأسعار ولم يجد الفقراء وأوساط الناس ما يأكلون وأقبلت في أثناء ذلك بعير لعثمان تحمل من الشام خيرا كثيرا ، فأسرع التجار إليه يريدون أن يشتروا منه بضاعته ليسروا بها على الناس وجعل يساومهم حتى عرضوا عليه ما يعدل أربعة أضعاف أثمانها ، ولكنه أبى إلا أن استطاعوا أن يدفعوا اليه عشرة أمثال أثمانها فلما أظهروا العجز أنبأهم بأن الله قد وعده عشرة أمثالها ان تصديق بها ، ثم أعلن اليهم أنه يؤثر هذه التجارة على تجارتهم ويؤثر ثواب الله على أموالهم . وأن بضاعته هذه صدقة للمسلمين ) ص ١٨٠ •

ثم يتحدث عن الشخصية الإسلامية الثانية ( طلحة بن عبد الله رحمه الله ) وقد دخلت عليه امرأته فرأته مغتما فلما سألته عن ذلك ، رقيقة به ، عطوفا عليه ، أنبأها أن قد جاءه مال كثير فهو مهتم لا يدرى ما يصنع ، فلم تزد امرأته على أن قالت له مبتسمة اقسمه ، قال

نعم ، ثم قسم هذا المال بين ذوى قرابته وذوى مودته  
وذوى الحاجة من المسلمين وأستقبل بعد ذلك ليله  
سعيدا ، وكان هذا المال أربعمائة ألف درهم )  
ص ١٨٠ •

من كل هذا ، وبعد أن أستحضر الدكتور العميد  
بعض الشخصيات الاسلامية من التاريخ لى يؤكد  
على ضرورة وجود مبدأ ( التضامن الاجتماعى ) وتطبيقه  
بعد ما تعرض لبعض النماذج العامة الفقيرة مؤكدا - من  
خلال هذا الاستحضار - التاريخى - على ضرورة ،  
( الغاء المسافات والاماد بين الأغنياء والفقراء والأقوياء  
والضعفاء ، وبين الأصحاء والمرضى ) وهذا مبدأ آخر  
يضيفه ( طه حسين ) الى مبادئه السابقة والتي تعرفنا  
عليها - وهو مبدأ المساواة بين الجميع ولكن  
هناك - وبعد كل هذا جانب سلبى من الكاتب - هذا  
الجانب يكمن خطره فى اضعاف موقفه - ككاتب - له  
فكر ومبدأ وهذا الجانب الذى اعتبره سلبيا هو محاولة  
الهروب من مواجهة هذا العصر ، الذى لا سخاء  
فيه ، ( طه حسين ) يدعو بعد أن حدد لنا تلك المفاهيم

الثورية والمبادئ الإسلامية التي تدعو إلى العدل  
والمساواة .. بعد أن حدد لنا هذا ودعانا إلى البحث  
عن الطريق الذي يوصل إلى كل هذا من أجل إزالة  
الخطر ، نراه يدعونا إلى الهرب ، بل الفرار بمعناه  
المعنوي .. يقول في ذلك : ( صدقتى أن الخير كل  
الخير للرجل الأريب ، أن يفر بقلبه وعقله وضميره من  
هذا الجبل ، فإن أعجزه الفرار إلى بلاد أخرى ، فلا أقل  
من أن يفر إلى زمان آخر من أزمنة التاريخ .. هذا  
هو الموقف !! أين القدرة على المواجهة ؟؟ أين هذا  
الموقف أين الحل ؟؟ .. ولكن هذا الموقف قد يدعونا  
إلى البحث عن تبرير قد يميل إلى الصواب وقد  
يسيل إلى الخطأ ، ولكنه على أى حال تبرير نضعه حتى  
لا نظلم أستاذنا العميد .. قد يكون هذا دليلا على  
أن الاناء قد امتلأ إلى الحافة فساك وطفح ما به فجاء  
هذا الخاطر تعبيرا عن شدة السخط والغضب .. وقد  
يكون تعبيرا عن لحظة ارتخاء ما بينه وبين السلطة  
الحاكمة تعفيه شر السؤال ، تدفعه تلك اللحظة -  
بعد ذلك إلى المقاومة من جديد ، ولا أقصد أن الرجل

كان مستأنسا ولكن أقول أن موقفه هذا غير واضح ،  
فهو يعقل أن يقول مثل هذا الكلام في نفس الوقت  
الذي نادى فيه أستاذه ( لطفى السيد ) بشعاره المعروف  
( مصر للمصريين ) !! بالطبع لا .

هو الذى نادى من قبل بمجانبة التعليم ،  
لاحساسه أن الشعب يستطيع أن يتخلص من يؤسه  
وفقره ، سواء أكان الفقر ماديا أو معنويا ، يتشن  
في فقر الروح ، والخواء العقلى ، أهى لحظة يأس  
اتابت ده مله حسين ؟ أظن أن الاجابة هنا بالنفى  
ونجبة . لماذا ؟ لأنه ينهى كتابه بدعاء الله أن يجنبه  
اليأس ويعصمه من القنوط ( انه لا ييأس من روح الله  
الا القوم الكافرون ) .

وعلى الرغم من هذا ، فإن التبرير الذى أضعه  
هنا - وهو ليس يقينا ولكنه استنتاج ، جاء تعبيرا عن  
حالة اليأس التى اتاينته بعد ما تعرض لكل هذه  
المأسى والفواجع التى يعيشها الشعب المصرى ولم  
يلقى فى النهاية الا العنف والاستنكار من جانب

السلطة التي اتهمته - كما ذكرت آنفا - بالشيوعية .  
حتى أنه وصل إلى القصر الملكي فأيده الملك ( فاروق )  
ولكن ( مصطفى النحاس ) استنكر هذا الأمر .  
بل وقام بتعيين طه حسين وزيرا للمعارف بعد أن تم نشر  
الكتاب في مصر وكان ذلك في أواخر « ١٩٤٩ » ومارس  
عمله هذا لكي يحقق رسالته التي من أجلها جاء ،  
ورسالته تهدف إلى تحقيق الحرية التي نادى بها لأبناء  
وطنه ، فهو يصرخ من الأعماق هذه الصرخة المدوية في  
آذان الذين يلتمسون لوطنهم الحرية فيقول لهم ( يجب  
عليكم قبل كل شيء أن تنقلوه من الجهل ، وأن تخلصوه  
واجبه أولا ، وحقه بعد ذلك عليكم أن تفتحوا لأبنائه  
طريق المجد ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم ) ثم يختم  
هذه الصيحة فيخاطب أولئك الذين يلتمسون لوطنهم  
الكرامة ويأبون أن يكون وطنهم مستغلا لوطن آخر ،  
ويطالبون بأن تعرف الدنيا مجده القديم وعزته الحاضرة،  
وأمله في مستقبل سعيد بلائم ماضيه ، وحاضره ، يخاطب  
كل هؤلاء بقوله ( عليكم أن تمكنوا هذا الوطن  
تحقيق هذه الآمال التعليمية واستنقاذه من الجهل ،

فلا مجد والجهل مخيم ولا حرية والجهل مستأجر  
بالقلوب (٣) .

ولكن ما هي صورة هؤلاء البؤساء (المعذبون في الأرض) كما رسمها العميد في كتابه ومن خلال فصوله المختلفة؟؟ كيف رسم الشخصية المصرية المحيطة ، البائسة في عهد ما قبل الثورة ؟ ما هي طموحاتها .. آمالها .. آلامها .. تصرفاتها؟؟ الوجود الفلسفي الذي يحكم وجودها؟؟ وبالتالي كيف حدد خصائصها في فترة تاريخية معينة من تاريخ مصر ؟

هذا ما سوف نبحث عنه في رحلتنا عبر المقالات القصصية التي كتبها (معنونة) كما يلي : صالح - قاسم - خديجة - المعتزلة - صفاء .

هؤلاء هم المعذبون في الأرض ، والذين (يشلون

(٢) مع طه حسين - سامي الكبيسي - سلسلة اقرأ - دار المعارف العدد ٢٧٥ - ١٩٧٢ م - ص ٩٢ .

الكثرة الكثيرة البائسة التي تتحرق شوقاً الى العدل  
مصبحة ومسيية ، وفيما بين ذلك من أناء الليل  
وأطراف النهار ) ص ٥٥ .

## ٢

سؤال يفرض نفسه علينا ونحن نتناول هذا  
بالتحليل .. هذا السؤال مرتبط أشد ما يكون الارتباط  
بمنهج تناول ، والسؤال هو :

هل تعتبر قصص هذا الكتاب والتي حملت  
( العناوين ) السابق ذكرها قصصاً قصيرة بمفهوم  
القصة القصيرة الفنية ؟؟ بمعنى آخر : هل من حقنا  
أن نتناولها من حيث أنها لن تخضع لأصول وقواعد  
ينبغي علينا أن نبث عن مواطن القصور والاختلاف  
وتخضعها - بالتالي - لهذه الأصول وتلك القواعد ؟؟  
وأهمية هذا السؤال تكمن في تحديد منهج تناول  
والدرس .. وسوف أعفى نفسى عناء البحث عن اجابة  
لهذا السؤال الذى طرح نفسه وأكتفى بتصريح الدكتور



العميد الذى ذكر فيه هذا الأمر حين قال : ( لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغى أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ، فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث الذين تعرض لهم الخطوب .. الذين يشكرون هذه الخطوب ، لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن .. ولو كنت أضع قصة لما التزمت اخضاعها لهذه الأصول لأننى لا أؤمن بها واعترف بأن النقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بينى وبين ما أحب أن أسوق من الحديث وإنما هو كلام يخطر لى فألمبه ثم اذيعه فمن شاء أن يقرأ فليقرأ ومن ضاق بقراءته فليصرف عنه ، ومن شاء أن يرضى عنه فليرض مشكورا ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكورا أيضا ) ص ٢٢ .

اذن نستطيع أن نقرر أنه لا يحق لنا أن نخضع

هذه الكتابات القصصية لأصول الفن القصصى لأنها  
أولا : لا تلتزم بقواعد هذا الفن .

ثانيا : لأنها تقيم الأهمية كلها للموضوع الذى  
يأتى مباشرة ، هو أقرب الى الصحافة منه الى القصة  
القصيرة ، ولنا أن نتساءل : من أى نوع اذن يمكن أن  
تكون هذه القصص ؟؟ هذه القصص - فى حقيقة  
الأمر - مقالات قصصية : والمقال القصصى طالما  
( يؤدي الوظائف الاجتماعية للصحيفة الدورية فى  
تكمال مع المواد الأخرى التى تحيط القارئ علما  
بالأحداث أو تفسر وتعلل ما يجرى من هذه الأحداث  
أو تنور عقله بعلومات وحقائق ، والمقال القصصى فى  
ضوء هذه الرؤية الصحفية يخرج من دائرة الأدب ،  
حين يوظف لأداء متطلبات الصحف من تنوع فى المواد  
شكلا ومضمونا ، فى اطار من الحيوية والاستجابة  
لاهتمامات القراء ، وفى شكل مقال أكثر مرونة من  
شكل المقامة لأنه يجعل الآثار الأدبية التى تقف فى  
مكان ما بين القصة القصيرة ، والمقال كثيرة جدا ) .

ولكن المقال القصصى عند د. طه حسين له سمات  
معينة يحددها ( د. عبد العزيز شرف ) فى مقال له عن  
هذا الموضوع :

١ - النمذجة الصحفية فى القالب القصصى .

٢ - المواقف الصحفية فى المقال القصصى .

٣ - وظيفة الشكل القصصى فى المقال .

وأكتفى - هنا - بذكر هذه السمات ولا أتناولها  
بالدراسة فهذا موضوع يحتاج الى وقفة أخرى .

والمهم - عندي - هو التعرف على الجو العام  
الذى رسمه د. طه حسين من خلال هذه المقالات  
القصصية ، كيف كانت الشخصية تفكر وتعمل وما نوع  
الفلسفة التى تحكم وجودها ؟؟ وما هو قدرها كما  
رسمه الدكتور الأديب ؟ !

ان البؤس هو البطل الرئيسى فى هذا الكتاب ،  
والفقر هو طريق هؤلاء الذين يعيشون حياتهم بلا دافع  
ولا طموح سوى أنهم يتعذبون فى صمت .. لا تجد

على ملامحهم علامات الغضب ولا التحفز للخلاص  
ولا بوادر المقاومة والمواجهة .. انهم دمي متحركة ..  
وجوههم عابسة ولامحهم مستكنة استكانة الموت ..  
فهذا صالح الصبي الصغير الذي يمثل البؤس عندما  
يسك بالصفاء فيشون عليه طائعين مستسلمين  
بجهلهم يذهب الى صديقة أمين حاملا اليه بعض الزهرات  
يلتمس بها عطف صديقه من أجل أن يمن عليه بعشاء  
يملا معدته الخاوية ، وهو لا يظهر هذه الرغبة لبعض  
من كرامة يريد أن يستبقها لنفسه ولا يهدرها هدرًا  
أو يسفحها سفحًا .. فلا يفهم صديقه أمين ما وراء هذه  
الزهرات الا عندما تعلمه أمه أنها وسيلة يلجأ اليها  
صالح لجلب الطعام ، فيبضي وراءه قائلاً له : ( أريد  
أن تبقى لتتغذى معا ) ولم يقل صالح شيئاً وانما تحول  
الى رفيقه ، وسعى في أثره هادئاً مطرقاً كأنه الكلب  
يتبع صاحبه اذا دعاه ، ويتألم ( أمين ) لبؤس صالح  
فيسأل أمه لماذا لا أفعل مثل صالح وأذهب الى جارتنا  
حتى أصيب مما عنده فتقول له : ( لأنك لست في حاجة  
الى ذلك فلست محروما ) ، طه حسين - هنا - يعرض

صورتين متناقضتين تماما : الصورة الأولى صالح  
البائس المحروم ، الباحث عن طعامه عند الأغنياء ،  
الصورة الثانية أمين « المنعم » الميسور الحال ،  
المندهش لتصرف صالح هذا ، ويريد أن يفعل مثله  
نغزابة هذا الأمر بالنسبة له ، ورغم أن ملامح صالح  
واضحة أمامنا إلا أن الدكتور ( طه حسين ) يتخذها  
رمزا لكل البؤساء في مصر فأكبر ( الظن أن صالحا  
هذا لم يوجد قط لأنه يمثل المملكة المصرية من شرقها  
الى غربها ، ومن شمالها الى جنوبها ، يوجد في القرى  
ويوجد في المدن ويوجد في كل مكان يمثل مصر نعمة  
وخيرا وهو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر هي بلد  
البؤس والشقاء ) ص ٢٤ .

صالح أصبح متوائما مع الفقر والبؤس  
لا حيلة له في الخلاص أو المقاومة لأن الجهل هو  
البطل ( أصبحت معاشره البؤس والشقاء والحرمان  
شيئا تطمئن اليه كما تطمئن الى الصحة والعافية هذا  
هو الملمح الأول الذي نستطيع أن نضع أيدينا عليه  
ونعتبره سمة أولى من سمات الشخصية المصرية في ذلك

الحنين ، وهذا الملمح أو السمة هي ( السلبية ) سلبية الشخصية المصرية في مواجهة أمورها رغم شدتها ، ويستمر ده طه حسين في تقديم صورة أكثر لصالح حين نعرف أن صالحا هذا قد أخذ ثوبا جديدا مما كان يلبسه صديقه أمين ، أعطته إياه ( أم أمين ) فسر به أشد ما يكون السرور ولبسه فرحا به ، ولكن زوج الأب تأخذ هذا الثوب الجديد من أجل أن يلبسه ولدها ( محمود ) فان الثوب لم يخلق لصالح ، وإنما يخلق لأنها محمود ، ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد لقي من أبيه ومن امرأة أبيه نكرا ، فضرب ضربا مبرحا مرض له أياما وجرده من ثوبه الجديد الجميل ورد الى ثوبه القديم ( ص ٤٠ )

ولكن ما مصير هذا الصبي البائس ؟؟

كانت نهايته تراجية كوجوده تماما ، مات مع الليل تحت عجالات القطار . وذهب بثوبه وتعاثته لينقص الألواف من البؤساء واحدا ويوفر لهم بعضا من قوت ، هذا هو قدر البائس .. الموت .

وعلى الجانب الآخر نجد أمينا - هذا - يخبره والده بأنه سوف يذهب الى المدرسة الابتدائية في عاصمة الاقليم .. الموت والنجاة وجهان لعملة واحدة هي الوجود الانساني ، واليؤس والثراء وجهان متناقضان ، الغلبة فيهما تكون للثراء دائما .. ويموت صالح حاملا معه هموم البائسين .. ودموع الفقراء .. ويعيش أمين حاملا معه تطلعات طبخته ميسورة الحال .. رائق البال .

اذن فصالح - هذا - صورة رسمها طه حسين لليؤس عندما يموت في مهده قبل أن يخضع لقانون الحياة ، فيتزوج ويأتي بنسل يزيد من هؤلاء اليؤساء ، ويضيف الى أعدادهم أعدادا أخرى .. ولكن ماذا عن يؤس الكبار ، وكيف يعيشونه ؟؟ هذا ما نجده عند قاسم .

٣

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » .

قاسم الصياد الفقير كان دائما يلتبس من هذه  
الآية النجاة وقت الشدة ( رغم أنه لم يكن رجلا جاهلا  
بأننا مريضا يلتبس في النهر ما يستعين به على أن يقيم  
أوده ويقوت امرأته أمونة وابنته سكينه في بيته ذلك  
الحقير ) \*

ونحن نضع أيدينا على سمة جديدة من تلك  
السمات التي تتصف بها الشخصية المصرية ألا وهي  
سمة ( الاطمئنان ) رغم غليان الروح ولا يعمل هذا  
سوى الايمان الذي يتمكن من قلوب هؤلاء البؤساء  
يلتمسون به النجاة والخلاص .

يخرج قاسم الفقير الى البحر ذات يوم يلتبس  
الرزق ( فخرجت له شبكته بسكة عظيمة لم يكن  
يحص ثقلها ، ولم يكده يرى طولها وعرضها حتى اضطرب  
في قلبه فرح ضئيل ) سوف يبيعها الى عمدة البلد  
( فهذا الرجل الموسر الذي يرفق به ويعطف عليه ويوحيه  
بين حين وحين بان يحمل الى داره ما قد يتاح له من  
صيد حسن ، وذهب قاسم الصياد الى دار العمدة



( رآه صاحب الدار فقال له قولاً حسناً ووضع في يده قروشاً وخرج الصائد راضياً ممتبلاً ) .

هذا عن قاسم ، فماذا عن بيته وامراته ( أمونة ) وابنته ( سكينه ) نجد أن أمونة توسع ابنتها سكينه ضرباً ، لأنها خرجت خارج الدار ، ولم تقل لأمها أنها ذاهبة ، ويأتي قاسم الى داره فعلم أن ابنته سكينه قد ذهبت الى زوج عمته خفية في داره ، فتعلم أمونة صدغيها ، ويصيب الهم ( قاسم ) الفقير . ولكن كيف نشأت هذه الصلة المكرة بين فتاة في السابعة عشرة من عمرها ورجل قد جاوز الشباب وهو زوج عمته .

ويأتي الجواب صارخاً ، قاتلاً كالرصاصة أنها الحاجة ، الحاجة هي التي دفعت بالابنة الشابة أن تفرط في أى شيء من أجل أن تعيش أبعد هذا نريد أن نعرف بؤساً أكثر من .

( ان الفتاة قد أطمأنت الى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت به بما كان يظرفها به بين حين وحين من

هذه الطيات المتواضعة فأكثرت التردد على دار عمتها  
ثم اتصلت المودة بينها وبين هذا الرجل ، الذى كانت  
تسميه عمها ( ولكن ما هو موقف قاسم من ابنته  
سكينة : هل يفقد كرامته مقابل الحاجة ؟ هل يضحي  
بابنته مقابل العوز ؟ لا .. هناك شيء من كرامة  
ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يثقل عليهم البؤس  
ومهما يسئ اليهم الضيق ، فإن في فطرتهم شيئا من  
كرامة تحضهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت  
أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق اليهم دون  
أن يكسبوه أو يحتالوا فيه - إذن - سمة جديدة من  
سمات الشخصية المصرية : شيء من كرامة رغم العوز  
والفقر ولكن هناك شيء هام يطرحه ده طه حسين  
وهو أن الفقراء يحسون بالبؤس أكثر عندما يرزقون  
بالبنات لأنهم بفقرهم وبؤسهم لا يستطيعون حماية  
بناتهم من الذئاب الجائعة فقامم يزعم قائلا : ( ما ينبغي  
للفقراء أن يلدوا البنات ) \*

أبعد هذا تنتظر شيئا آخر ؟ من خلال المعطيات  
التي يفرضها واقع هؤلاء المذبذبون تظهر لهم فلسفة

جديدة يرددونها بفطرة الجهلاء .. السذج .. وليس قاسم وليست أمونة وليست سكية ليسوا وحدهم الذين يلاقون بلية الحياة ويواجهونها في صمت الموتى ولكن هناك ( أمونات وسكنات كثيرات لا يحصين بالآلاف ولا بالآلاف ، وانما يحصين بمئات الآلاف وقد يحصين بالملايين ) .. وما هو قدرها أمو الموت ؟؟ كان قدر صالح هو الموت ، ولكنه - هنا - شيء آخر هو الاختفاء ( أن أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود اليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى الى النهر من آخر أنليل ولكنهما أمالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشيء ) لقد هرب قاسم من فقره وبؤسه أو ربما أغرق نفسه في النهر ولكنه - في النهاية - تعبير عن سلبية الشخصية التي لا تستطيع أن تواجه .. هذا نتيجة الجهل .. الجهل الذي أثثر وفرد قلوبه على القوم فجعل القصير فيهم فقيرا لا يستطيع المواجهة ، وعلى الجانب الآخر يجد هؤلاء الترفين الذين لا يحسون مأساة قاسم ، نراهم ( لا يخفلون بأمونة ولا بسكية

ولا بقاسم ، شغلهم أنفسهم عن كل شئ وعن كل  
إنسان ( ص ٦٥ •

وتلك سمة جديدة تضاف الى بقية السمات  
الخاصة بالشخصية المصرية والتي سبق ابرازها أنها  
سمة ( حب الذات ) أو الأثرة • • مجتمع ملئ  
بالمآسى • • بالسلبية • • بالقناعة والاطمئنان الكاذب ،  
بشئ قليل من الكرامة • • وكثير من الأنانية •

أبعد هذا يمكن أن يترك العذاب هؤلاء  
المعذبين ؟؟

خديجة ابنة شعبان الفقير المقتر عليه في الرزق  
والذي يعمل في اقامة الدور التي تتخذ من الطين  
الغليظ ، أمها محبوبة ( امرأة نصف تطوف بأهل القرية  
تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعا خاصا  
هو هذا الذي يتخذ من الذرة رقيقا مستديرا  
واسعا ) ص ٦٨ •

تعمل عند سيده خادمه لها في دارها ، وهذه  
السيدة كانت تعطى خديجة كل يوم بعضا من الطعام

لكي تحصله الى أهلها ، ولكن خديجة كانت رغم فقرها  
ويؤسها مثالا للشخصية الممتدة بنفسها فبرغم ظروفها  
تلك الا أنها لا تقبل أن تكون طعمة للأغنياء ( كانت  
تسمى أن تحمل الى أهلها هذا الطعام ، فكانت اذا  
خرجت بالطبق أو الأطباق ، تخففت مما فيها ، تهديه  
الى الفقراء ان وجدت في طريقها الفقراء ، وتلقيه الى  
الكلاب ان وجدت في طريقها الكلاب ، وتلقيه في عرض  
الطريق ان لم تجد في طريقها ناسا أو كلابا ، ثم تضع  
الأطباق في زاوية البيت وتستمر خديجة على هذا الأمر  
الى أن وجدت أمها ( محبوبة ) ( في زاوية من زوايا  
بيتها هذين الطبقين فلم تشك في أن ابنتها تخون  
سادتها وتسرق ما في دارهم من متاع ، فلم يبق اذن الا أن  
تسرق فتخون من يحسنون اليها والى أهلها ) ص ٧٢ •

• ولهذا فهي توسع ابنتها خديجة ضربا حتى تخبرها  
خديجة بالحقيقة بعد ما أخبرتها بالحقيقة ربة الدار •

في هذا المقال القصص نجد الدكتور مله حسين  
يضيف خاصية جديدة أو سمة جديدة أخرى من تلك

السمات التي تنسم بها الشخصية المصرية والسمة هي التعفف (تعفف لا يجدونه عند الأغنياء) •

ولأن خديجة لا تملك في حياتها شيئا آخر غير هذه العفة والكرامة الثرية فإن فتيات القرية يتقربون إليها ويتقدم إليها هذا الغنى القوي الموفر الصحة فتفرح أسرة خديجة بهذا الفتى ، ولكن ( تمتنع عن هذا الزواج وتلج في الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التي تحياها خادما على تلك الحياة التي تدعوها الى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها وهي تمتنع وتلج في الامتناع حتى تثير الريبة في نفس أبويها ) ص ٧٥ •

وفي المقابل تضطر خديجة الى الموافقة ، وتزف الى زوجها هذا •• ويقطع الشك تلك الراية القانية التي ترتفع في ظلمة الليل وبين خفقان المصاييح وزوج الفتاة سعيدا متنبطا كاحسن ما يسعد الأزواج ويتنبطون • ولكن خديجة أكرهت على الزواج ، ومس حياءها

أر نفسها الطاهرة منه ولأنها أكرمت على هذا النحو  
فقد انتحرت .. الموت دائما هو قدر هؤلاء المذنبين  
فكما مات ( صالح ) تحت القطار وكما اختفى قاسم  
ولم يظهر - وربما مات هو الآخر - تموت خديجة  
لكي تؤكد تلك الفلسفة التي يضعها دم له حسين قدرا  
لهؤلاء البؤساء الأتقياء في حياتهم ورغم هذه الدقة  
الشديدة في إبراز الشخصية إلا أن ( مله حسين )  
يقع - بعض الأحيان - في تناقض يضعف من حدة  
هذا الجو الذي يرسمه ويضعف - كذلك - من حدة  
الشخصيات المطروحة فهو يقرر ( أن النساء والمذاري  
من أهل القرية يخرجن الى النهر متغنيات جمال الحياة ،  
وكانه حلم ، يلم بنفوسهن في آخر عهدها بالليل ) هذه  
الصور تبدو أمامنا وبدلا من أن تؤكد على مفهوم  
البؤس الذي يحمله الكتاب ، تحيل لنا أحساسا آخر  
وهو أننا في جو خيالي صنعه قصص ألف ليلة وليلة ،  
وليس قصص صنعتها الحياة المصرية البائسة .

وهناك سخرية مريرة نحسها في كلمات  
 ( طه حسين ) عندما يتحدث عن الشقاء والنعيم في حياة  
 قومه ( لأنى أعلم من جهة أخرى أن ترف المترفين  
 إنما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم  
 وليس من سبيل إلى تغيير القضاء أو تبديل القدر  
 أو إلغاء سنة الله في الناس ، فإله قد خلق الناس على  
 ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم  
 حتى يطفئ الترف وينعم حتى يبطره النعيم ، ويحرم  
 بعضهم حتى يضيق به الحرمان ويشقى حتى يحميه  
 الشقاء ) ص ٨١ •

الشقاء قدر مكتوب على الأشقياء ، كما أن  
 السعادة قدر مقدور على السعداء ولأن ( طه حسين )  
 - وبذلكاته - المعهود يعرف أن هناك من يتربصون  
 له ، وسوف يضعون أيديهم على سخريته المريرة هذه  
 فإنه يعلمهم بأمر يخرسهم بقوله : ( أنا أريد دائما  
 أن أكون كاتباً ذا خطر فأرضى قرائى وأسخطهم وأسر



قرائى وأسؤهم وأعجب قرائى حتى يكلفوا لى أشد الكلف وأعظمهم حتى يمتنوني أعظم المقت ، وأنا زعيم المترفين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة ما يعجب اليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجذ كما يقال ويرضون عنى كل الرضا وبأن أسور لهم هذا الترف منكرا بشعا ومذمما بغضا فيسخطون على أشد السخط وأنا زعيم المعذنين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكروه فيرضون عنى وما يلقي فى قلوبهم أن حياتهم لا تطاق وأن من حقهم أن يخرجوا منها الى حياة ألين جانبا وأرق ملمسا ، وأن ليس لهم سبيل الى هذا الخروج فيضيقون بى أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضى القراء وأعطيهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف ( ص ٨٣/٨٤ .

أسلوب تهكمى .. استنكارى ، يتحدث به ( طه حسين ) فنعلم مدى ما وصل اليه من مرارة لاحتاسه بعذابات هؤلاء المعذنين .

ولكن ما حكاية هذه الأسرة التى تحدث عنها ؟؟

انها أسرة ( المعتزلة ) أو بالأصح أسرة ( أم تمام )  
الأسرة الفقيرة ، البائسة التي اعتزلت القوم في القرية ،  
فكان بيتها أشبه شيء بالبقعة التي تفسد جمال الثوب  
الجميل النقي ، كان ضيقا في الفضاء الضيق أشد  
الضيق ، منخفضا الى الأرض أشد الانخفاض ، قد  
أقيم من هذا الطين الساذج الذي يخلطه الفلاحون بشيء  
من التبن والقش ) ص ٩١ .

في هذا البيت نعرف أن أم تمام تعيش فيه هي  
وأولادها ( تمام ) ويبلغ العشرين و ( أبو الملاء )  
وهو قد جاوز الخامسة عشرة قليلا ، و ( سعدى ) في  
لثانية عشرة من عمرها ( كان الجبال والدماة يختصمان  
على وجهها ) .. الأم وأولادها الثلاثة يعيشون في هذا  
البيت الطيني يعملون في صمت .. يعتزلون القوم ..  
وكانهم يشعرون بهذا الاعتزال وقاية لغيرهم من يؤسهم  
الذي يعيشون فيه ( ولم تحاول أم تمام قط ولم يحاول  
أحد من بيتها قط الاتصال بالناس الا حين كانت  
الضرورة الملجئة تضطرهم الى ذلك اضطرارا ، فقد  
كانوا يحتاجون الى أن يشتروا الطعام ليقسموا أودهم ،

وكانت ( أم تمام ) تحتاج أحيانا الى أن تبعد هذه الأسباب فقط تخرج هذه الأسرة الى الناس ، ويستمر بهم الحال على هذا النحو من الشقاء والعذاب الى أن يقبل الوباء ( الكوليرا ) ( فيخطف ابنها في أقل من خمسة أيام وهي مع ذلك هادئة ، ساكنة مطرقة بجسمها كله الى الأرض ، لا يرتفع لها صوت بالأعوال ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ، وإنما هي مقيمة في بيتها وقد أوت إليها ابنتها كأنما تنتظر أن يلم الوباء ) ص ٩٦/٩٧ ، وتعيش أم تمام في حزنها وعذابها الى أن يأتي نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة أخرى تمتنع على الموت امتناعا ، وقد رأوا ( أم تمام ) تفرق نفسها وابنتها في القناة اليراهيمية فأسرعوا الى استنقاذها ولكن الموت سبقهم الى الشقيقة وسبقوه هم الى الصبية ) ص ٩٩ •

وتعيش ( سعدى ) في بؤس وفقر الى أن يراها أهل القرية في يوم ما ( تسمع وبطنها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع في أحشائها جنينا ، وتختفي سعدى في يوم ما - أيضا - كما

اختفى قاسم الصياد الفقير من قبل لا يعرف أحد أين ذهب ولا تهمهم المعرفة في شيء .

نستطيع مما سبق أن نلمس عدة أشياء : الشيء الأول التخلص من الحياة المذبذبة بالموت ، فهل هناك أصعب من أن تذهب أم وابنتها لكي تعرفا في مياه التربة تخلصا من هذا العذاب الذي تعيمانه - قد يكون هذا الموقف سلبيا وهو بالطبع كذلك - ولكنه تاج تلك الأثرة التي هي الأساس المتين الذي قام عليه النظام الاجتماعي في مصر .

الشيء الثاني : د. طه حسين يؤكد أن الموت هو قدر هؤلاء ، فهذه الأسرة قد مات أفرادها كلهم واختفت سعدى ، الاختفاء هو أحد حدى القدر ، فاما الاختفاء وأما الموت .

٦

ولو أن الدكتور العميد قد تناول فيما سبق نماذج وأنماط تعبر عن حال الطبقة الدنيا - في تلك الفترة من الزمان فما هو حال الطبقة المتوسطة ؟؟

هذا ما يمرضه علينا طه حسين من خلال  
مقاله القصصى الذى كتبه تحت عنوان ( صفاء ) .

هناك أسرتان فى هذه القصة ، الأسرة الأولى  
تتألف من ( ميخائيل ) وزوجته ( حنيفه ) وأبنتها  
( صفاء ) وهى أسرة متوسطة والأسرة الثانية تتألف من  
المعلم يونان وزوجته مرجانة وابنها ( عبد السيد ) وب  
الأسرة الأولى ( ميخائيل ) صاحب تجارة يسمرة هينة  
قد اتخذ له حانوتا بعيد عن داره بعض البعد يبيع فيه  
سقط المتاع من الخرز الذى يتخذ الفقراء منه عقودا  
يتحلى بها النساء والفتيات وشيئا من الأقمشة الرخيصة  
التي يتخذ منها نساء الريف ثيابهن حين يتفضلن وزيتتهن  
حين يتبرجن .

وأما الأسرة الثانية ( المعلم يونان ) كان كاتباً  
متواضعاً فى دائرة من دوائر الترك ، ينفق نهاره عاكفاً  
على دفتاره ، أو محاسباً للناظر أو مراقباً للمعاون .  
وقد سمعت الأسرتان المتجاورتان فى طريق واحد الى  
الضيقة ، ثم الى الضيق الشديد ، ثم الى الاعدام

والحرمان ، فازدادت الصلوات بينها قوة وفزع الشيخان  
القاعدان للبطالة والحديث وجعلت مرجانة وحنيفة  
تلتقيان حين يسفر الصبح وحين يتقدم النهار تتقاضان  
المنافع وتعاونان على أنفصال الحياة وتتجاذبان أطراف  
الحديث كما يقال ( ص ١٣٣ •

ولكن ما حكاية صفاء تلك والتي اتخذها الدكتور  
عنوانا لمقاله القصصى أحبت صفاء ابنة ميخائيل وأخت  
نصيف أحبت ( عبد السيد ) ابن المعلم يوان ، ويلتقيان  
أكثر من مرة ( وإذا الأسرتان تلحظان أن لهذين القتين  
شأننا فلا تنكران ولا تعرفان أول الأمر ثم تبتسم القلوب،  
قلوب الشيوخ لهذه الصلة الناشئة بين هذين القلبين  
انشايين ) ص ١٣٥ •

ويستمر الحال على هذا الأمر الى أن تتحدث  
( مرجانة ) الى حنيفة وتحدث المعلم الى المقدس  
وتصبح الخطبة شيئا مقررًا متفقًا عليه •

كل هذا ونصيف ابن ميخائيل مقيم في عربته  
تتقاذفه المدن في أعلى الأرض وفي أسفلها ، وقد ثبت في

منصبه فلم يقبض أجره مياومة وانما أصبح موظفا بالمعنى الدقيق ( بعد أن أخذ دبلوم البرق فأصبح مرتبه أربعة جنيهات ونصف جنيه وكان لأيويه ، من المرتب نصيب يصل اليهما أحيانا كاملا وأحيانا منقوصا ، وتتخلف عنهما بين حين وحين ويستمر الحال على هذا إلى أن يموت الأب ( ميخائيل ) ، ( مما ألقى في روح الفتى أنه أصبح بعد موت آبيه رجلا يحتل التبعات وينهض بأعمال الأسرة . وقد واجه التبعات والأغواء مواجهة حسنة فشمل أمه وأخته بكثير من العطف والرعاية ، وجد واجتهد وسعى ووسط غيره في السعى حتى استطاع أن ينقل نفسه من مدينته تلك البعيدة ، والتي كان يعمل فيها إلى مدينته هذه التي تقيم فيها أسرته ( ص ١٣٧ .

وتمضى أمور الأسرة كما تستطيع ( فإذا هو يرقى بها إليها ) ويعرض الابن ( نصيف ) على أمه أن هناك زميلا له حدثه في أمر أخته ( صفاء ) ( ولم تعود الأمهات في مثل هذه الأحوال والبيئة مقاومة أبناءهن

وانما تعودن الاذعان لهم والاستجابة الى ما يريدون )

ص ١٤٠ •

وعلى الرغم من أن صفاء تحب ( عبد السيد )  
الا أنها هي الأخرى تدعن لارادة أخيها ( نصيف )  
وأما عبد السيد فيثور ويثور وينذر مرة باقتراف  
الجريرة ومرة يقتل نفسه ، ثم يرد الى هدوء منكر من  
ورائه شر عظيم ولم يحتفل عبد السيد بعد ذلك بشيء  
حتى ظنت أمه مرجانة به الظنون ( فقد كان الفتى غائبا  
في حبه اذن ، وهو الآن غافل بعد أن تقطعت الأسباب  
بينه وبين غذا الحب •

وهت مرجانة أن تتحدث ذات يوم الى ابنها  
( عبد السيد ) في بعض ذلك فقال لها متضامنا ( ما نحن  
وذلك أن المال أقوى قوة وأعظم بأسا وأشد سلطانا  
وأشد اغراء من الحب وما ينبغي للفقراء أن يجبوا )

ص ١٤٥ •

والدكتور ( طه حسين ) يضع فلسفته الخاصة  
عن الحب عند الفقراء هل هو حب مترف...مريح ، سهل



المثال ؟ أم هو حب عسير المثال ؟؟ أنه حب عسير المثال  
وكما صرخ ( قاسم ) الصياد من قبل معلنا أنه ( ما ينبغي  
للفقراء أن يلدوا البنات .. ) فان ( عبد السيد ) المحب  
المطلعون في قلبه المحب ، لأنه فقير ، يعلن نفس الصرخة  
( ما ينبغي للفقراء أن يحبوا ) إذن فالحب عند الفقراء  
محكوم عليه بالأعدام ، الفقير عندما يحب حبا خالصا ،  
يخس أنه غريب ضائع .. وكأنه يعيش في عالم ليس  
عالمه ، ومن هنا تتقاذفه الأمواج حتى يسقط في الهوة  
الأخيرة ( الموت ) فهو ليس الفارس القديم الذي يركب  
حصانه ويختطف حبيبته لتركب خلفه وتأخذها يطير  
بها ، ولكنه ينعى حبه ويقول مع الشاعر المعاصر  
( بدر شاكر السياب ) :

أن القلوب والصبابات وقف على الأغنياء

( فان المال أقوى من الحب ) فلسفة جديدة  
يعلنها لنا ( طه حسين ) لكي نعلم أنها الفلسفة المحركة  
لوجدان هؤلاء القوم ( متى استقاع الفقير المعدم أن  
ينفذ من أسوار المال والثراء ) ص ١٤٥ •

الحب الرأسمالي قائم على حب التملك والسيطرة ،  
فالمرأة فيه تتحول الى سلعة تشتري بالمال .. والحب  
الاقتصادي قائم على التفاهم والمشاركة وتخطي الصعاب ،  
فأى الحين يرغبه طه حسين ويدعو اليه يتساءل  
( أحق اذن أن الحب لم يخلق للفقراء ، وأن الفقراء لم  
يخلقوا ليحبوا وانما خلقوا ليكذبوا ويجحدوا ويعطوا  
ويكسبوا القوت ، فان بلغ من ذلك ما يريدون فهو خير  
لهم ، وان لم يبلغوه فان في الشقاء لهم سعة وفي الموت  
لهم راحة وروحا ) ص ١٤٧ •

وكما قلنا - ومن خلال ما طرحه طه حسين - فان  
قدر البؤساء هو الموت ، أو الاختفاء ، نرى أن  
( عبد السيد ) قد مات تحت عجالات القطار ، كما  
مات - من قبل - وبنفس الميته ( صالح ) البائس •

وصفاء ماذا عنها أنها تزوجت مرغسة ، مدعنة  
الارادة ، تزوجت من غير حب حقيقي ، لم تستطع  
التمرد لأنها لا تملكه ، فهي مسلوقة الارادة ، وهذه  
سمة عرفنا أن ( طه حسين ) يؤكد على مدار المقالات

القصصية عندما أرادت أن تنمرد ، تمردت بالموت ،  
انتحرت ، كما هو واضح فإنه تمرد سلبى ، وتقول  
حنيفة فى النهاية ( يا ليتنا لم نعرف المال ) وتقول  
مرجانة فى نحيبها ( يا ليتنا لم نعرف الحب ) وتقول  
( يونان ) ( قد عرفنا الموت الذى هو أقوى قوة من  
المال والحب جميعا ) .

وفى النهاية يبقى هذا الصراع متواصلا للبحث  
عن العدل والحرية طالما هنا قوم بؤساء ( يحرقهم  
الشوق الى العدل ) وطالما هناك قوم أثرياء  
( يفرقهم الخوف من العدل ) يستمر هذا الصراع  
ليبلور تراجيدية الوجود التى تحكم هؤلاء القوم ، أن  
وجودهم فى واقع الأمر وجود تراجيدى ينتهى فى أغلب  
الأحيان بالموت ، بالاختفاء ، بالانتحار وكلها فى اعتقادى  
مواقف سلبية لا تدعم حقوق هؤلاء ، رسمها مله حسين  
ليؤكد للسلطة الحاكمة بؤس البائسين وعذاب  
المذنبين .

يبقى في النهاية أن نجيب على السؤال الذي  
طرأه في مقدمة هذه الدراسة وهو :

هل يعتبر هذا الكتاب تصورا ثوريا لانتفاضات  
المجتمع المصري ضد القهر والظلم الذي ساد في مجتمع  
ما قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٤ ؟

وهل يعتبر ( طه حسين ) ومن خلال هذا الكتاب  
صاحب فكر اشتراكي ؟ \* من كل ما سبق نستطيع أن  
نقول ان كل ما يكتب عن وضع معين قائم وهذا الوضع  
يتعارض مع طبيعة الوجود الانساني يعتبر سبيلا من  
تلك السبل التي تحدث في النهاية هذا الفعل الثوري ،  
وده طه حسين خلال فصول هذا الكتاب استطاع أن  
يجعل هذه المآسى تطفو فوق السطح لكي تحدث  
في النهاية هذا الرد الفعلي في التغيير أو الثورة وقد عمل  
على أحداث هذا الفعل في الحدود التي تعرض لها  
ومن هنا نعتبره وبلا وقوع في خطأ تصورا ثوريا  
لانتفاضات المجتمع المصري ضد القهر والظلم الذي  
ساد في مجتمع ما قبل الثورة ، وهو من خلال المطلوب

والمعطى والمرغوب يعتبر تمهيدا للأفكار الاشتراكية  
التي أصبحت تيارا أساسيا من تيارات العصر بعد  
الثورة .. اشتراكية لا تنبع من أيديولوجية معينة  
ولكنها تنبع أول ما تنبع من الإحساس المرفف بقضايا  
المجتمع الذي عاش فيه فعبّر عنه في صدق الكاتب  
والمفكر .

## الفصل الثاني

---

### ( ما وراء النهر ) البحث عن المعدل الاجتماعي

في الفترة التي كتب فيها د. طه حسين هذه القصة - وبالتحديد سنة ١٩٤٦ عندما نشرت في أعداد مختلفة من مجلة الكاتب المصري التي أصدرها طه حسين في أكتوبر ١٩٤٥ ، ونشر فيها - فيما بعد ( المذبذبون في الأرض ) - في هذه الفترة كان هناك التزام أو شبه التزام بين الكاتب - وأقصد كتاب الرواية والقصة - بالأسلوب التصويري هذا الأسلوب الذي قد يجعلهم يوغلون في مراتبه للدرجة التي قد تصل بهم إلى

الانغراق في الرمز ، فنرى أعمالهم بما فيها من رمز  
واشارة وتلميح ، يضاف عليها شيء من الغموض ،  
وهذه المسألة واضحة عند « يحيى حقي » - كشال -  
في مجموعة ( عنتر وجوليت ) وكذلك انتاج « محمود  
تيمور » المبكر ومآثر لاشين مرورا بـ ( حديث  
عيسى بن هشام ) وزينب .

والدكتور طه حسين يحس بكل هذا ، فنجدده  
يصرخ في مقدمة كتابه ( المذبذبون في الأرض ) قائلاً :

( ان هذا الأدب الجديد الذي أنشأته حكومات  
الطغيان انشاء حين اضطرت الكتاب الى العدول عن  
الصراحة الى قنوت من التعريض والتلميح ، ومن  
الاشارة والرمز ، حتى استقل هذا الأدب بنفسه وتنافس  
فيه القراء تنافسا شديدا ، وجعلوا يقرأون ويقولون ،  
ويناقش بعضهم بعضا في التأويل والتحليل واستخراج  
المعاني الواضحة والاشارات العامضة ) .

نجد أن الدكتور طه حسين في قصته ( ما وراء  
النهر ) يقرر أن أحداثها لم تقع في أرض مصر ،

( فليست هذه القصة مصرية ، لأن مكانها لا يوجد في أرض مصر ولأن الأشخاص لا يعيشون في جو مصر ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين فاهل مصر كلهم أخيار أبرار . فلست نرى بينهم قويا يستذل ضعيفا ولا غنيا يستذل فقيرا ولا ناعما يستطيل على بائس ولا سعيدا يستخفى بشقى ) .

فماذا اذن يقصد الدكتور العميد بهذا الكلام ؟؟

أحقا لم تحدث الأحداث في أرض مصر ؟ وهذه الشخصيات أليست شخصيات مصرية في تكوينها وسلوكها ، حتى تنفى عنها صفة المصرية .

ـ لابد أن الدكتور العميد يطمح من وراء ذلك الى التهكم والسخرية فهذا الالاحاح الدائم والمستمر لهذا التاكيد على أنها لم تقع وما كان لها أن تقع في أرض مصر ، يؤكد صحة هذا الأمر ، وما تحمله من أشياء غامضة تحتمل التفسيرات من قبيل « ما صلة الناس بمنع النهر ومصبه ولماذا تمتلئ نفوسهم هولا ورعبا



إذا فكروا في عبور شاطئه الشرقي إلى الشاطئ الغربي؟؟  
وما سر هذه الجبال الشاهقة التي ترتفع في السماء  
فيما وراء النهر؟؟ وما هذا الشيء الذي يكون وراء  
النهر؟

- يقول رءوف متحدثا إلى صديقة الشاعر ( انظر  
إلى ما وراء النهر أترى شيئا ...؟ فمد الشاعر طرفه ثم  
رده ، ثم قال : تريد هذه النار التي تتألق على هذه  
القمة؟ قال رءوف : نعم ، متى عهدك بها قال الشاعر :  
لا أعلم أي رأيتها ) ص ١٠٦/١٠٧ .

ـ إذن ما هذه النار التي تتألق على هذه القمة  
العالية وما الصلة بين هذه النار وبين مصرع الفتاة ؟  
وما الذي يدفع برءوف وهو صاحب الجاه والمزلة  
إلى أن يفكر في عبور الضفة الأخرى من النهر؟؟

- أسئلة كثيرة يفرضها علينا هذا العمل ، وقد  
تجعلنا ـ تبعا لما يقرره له حسين فيما قلنا ، وقد جاء  
في مقدمة كتابه ( المذبذبون في الأرض ) أن تفكر في أن  
الفترة التي كتبت فيها هذه القصة قد جعلت الكتاب

يفسرون ( الى العدول عن الصراحة ، الى فنون من التعريض والتلميح ومن الاشارة والرمز حتى استقل هذا الأدب بنفسه ) .

لاشك اذن ان هذه الأشياء المبهمة والمعماة تتخذ رموزا لحقائق عامة يعرضها الكاتب على القراء ويترك كلا منهم يفسرها حسب تكوينه الفكرى والاجتماعى . وهذا ما يفسره لنا - كذلك - أن د. طه حسين يطلب من القراء ( ألا تكون قراءتهم سلبية غير ذات عناء فهذه القصة لا تحتل القراءة السلبية وانما هي تريد ، بل هي لا تقوم الا على المشاركة الايجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارئ حين يتم الرسم ويملا ما بين الخطوط من فراغ لعله ترك عن ارادة وعمد ) ص ٢٨/٢٩ .

اذن فهناك أشياء تركها الكاتب عن عمد ، يتركها للقارئ يكتشفها وحده ؟ ..

ورغم أن الدكتور العميد يصرح أنه ( لا أصطنع من حديثي رمزا ولا ايماء ، وانما اصطنع الصراحة التى

تؤثر الجلاء وتكره الغموض ( رغم أنه يصرح بهذا  
الآن أننا نجد أنفسنا وبمواجهة كل ما تقدم نختلف معه  
في هذا الأمر ، ولنا الحق في هذا الاختلاف حيث أنه  
يعترف لنا دائما بتجربته في التناول والتوصيل والايهام،  
فلنا نحن أيضا حرية أن نرفض أو نؤيد أو نختلف ، تبعاً  
لمعطيات العمل المكتوب ، وتبعاً - كذلك - للتكوين  
الفكري والثقافي الذي يميز بعضنا عن بعض .. وهذا  
ما يجعلنا تتساءل - في البداية - وقبل أن ندخل  
الى عالم القصة الحقيقي يجعلنا تتساءل عن هذه  
( الربوة العظيمة الارتفاع والاتساع ، وهذا القصر  
الشاهق والشجر الباسق والزهرة الرائقة والنجم السائق  
والنهر الدافق الذي يجري من تحت كل هذا في أناة  
حيناً وفي عنف حيناً آخر ) ص ٢١ .

تتساءل عن كل هذه الأشياء التي يصر الدكتور  
العميد على ضرورة وجودها حتى تكون هذه القصة  
التي يقصها علينا في استطراد طويل .. وتفصيلات كثيرة،  
ويقرر أنه يعرف أن ( قوانين الفن تتيح أن توجد الربي  
وتفنى وأن تظهر وتخفى بل هي تبيح أن توجد هذه

الربوة في مدينة القاهرة نفسها الى أن تقع الأحداث  
ثم تمضى بما عليها كأن لم تكن بالأمس ) .

طلما أنه يعرف كل هذا ، فلماذا هذه الامالة  
وهذا الاستطراد ؟ الى تأكيد ما هو مؤكد من حيث أن  
هذه القصة لم تقع أحداثها في مصر ، وأن هذه القصة  
يلزمها ربوة عظيمة .. الى آخره ؟ ! الأمر الذى يستغرق  
من هذه القصة التى تقع في ثلاثة عشر فصلا . يأخذ  
منها أكثر من ثلاثة فصول حتى نضع أيدينا على أول  
الخيوط المكونة لنسيج القصة .

وبعد معرفتنا ان أحداث القصة ربما تكون في  
( أسبانيا ) لأن بها روى كثيرة عالية .

أسئلة كثيرة طفت أماننا على السطح قبل أن نبدأ  
مع هذه القصة الأحداث ، والدكتور الأديب يبرر هذه  
الامالة تبريرا أراه غير موضوعي اذ أنه يقرر ( أن هذا  
الحديث قد طال وأسرف في الطول قبل أن يصل الى  
أول هذه القصة - يقصد القارىء - فليس على القراء  
الا أن يقرءوا ويسمعوا ، كما أنهم أو كما أن بعضهم

ليس عليه الا أن يجلس الى مائدة الطعام في مواعيد موقوتة ليضع ويسبغ ( ص ٢٩ •

ولهذا السبب الذى ذكره فانه يقول : « لا أحب هذا اللون من الطهى الأدبى ، لأنى أكبر نفسى وأكره أن أكون خادما للقراء من جهة ولأنى أكبر القراء وأكره أن تكون آذانهم أفواها وعقولهم بطونا يلقى اليها الكلام فيسمعون ثم يسيغون ، لا أحب شيئا من هذا وانما أحب أن أنشئ بيني وبين القراء نوعا من الزمالة بحيث تبدأ القصة معا ونسقى فيها معا • تتفق أحيانا ، ونختلف أحيانا أخرى ، ويشجر بيننا الخلاف والخصام من حين الى حين » ص ٢٩ •

• قلت أننا نختلف مع هذا التبرير لأسباب منها :

• أولا : أن التفاصيل هذه من شأنها أن تصرفنا عن العمل لا أن تقربنا منه .. خاصة ان هذا العمل قصة ينبغي عليها أن تضع القارىء مع الأحداث من أول وهلة •

ثانيا : ان احداث الزمالة بين القارئ والكاتب  
لا تصنعها الاطالة بقدر ما يصنعها الصدق في التوصيل  
والقدرة على النفاذ الى وجدان هذا القارئ .

ثالثا : ان يحدث خصام بين القارئ والكاتب  
ينبغي - لو حدث - ان يحدث بسبب اختلاف  
أو تعارض في وجهات النظر لاختلاف التكوين  
الاجتماعي والثقافي والسيكولوجي - أيضا - عند كل  
من الطرفين : الكاتب والقارئ .

ومن أجل أن نبحت عن هذا الشيء الذي يحدث  
بيننا وبين الدكتور اشجار أو الخصام - الذي لا نود  
أن يكون - سنحاول أن ننفذ الى أعماق هذا العمل  
بالتحليل والدراسة منطلقين من قوله : ( اقرأ ان شئت  
وأرض ان شئت لو أثارت القراءة في نفسك الرضا  
واسخط ان أثارت القراءة في نفسك السخط ، وأنا  
أعفيك من الثناء والتفريط مخلصا ، وأبيح لك النقد  
والعيب مخلصا أيضا ) .

تدور أحداث قصة ( ما وراء النهر ) في موقعين  
يختلف كل منهما عن الآخر في التكوين والشخصيات .  
ولكن هناك رابطة ما تربط بين هذين الموقعين .

١- الموقع الأول الذى تدور فيه الأحداث هو قصر  
هذا الشيخ الثرى ( رءوف ) والذى يوجد فوق ربوة  
عالية . والشخصيات التى تدور بهم الأحداث فى هذا  
المكان هم : ( رءوف باشا ) وولده الفتى ( نعيم )  
وصديقه ( الشاعر الشيخ ) .

٢- والموقع الثانى الذى تدور بسببه الأحداث  
هو هذه القرية التى ( تقوم على سهل منبسطة مما يلى  
الربوة وهى بعيدة الأرجاء ، مترامية الأطراف قبيحة  
المنظر الى أقصى غايات القبح ، تقوم فيها دور منخفضة  
لا تكاد ترتفع فى الجو الا قليلا ولم تتخذ من الحجر  
ولا من الآجر ولا من اللبن ، وانما اتخذت من الطين قد  
صنع صناعة غليظة خشنه وأسند بعضه الى بعض وأقيم

بعضه على بعض ، فاكثفت منه بيوت كانت تريد أن تكون ججورا تتخذ فى باطن الأرض ( ص ٢٧ •

ـ وأهل هذه القرية هم ( أحرار كالعييد ، وعبيد كالأحرار ، ليسوا راضين ولا ساخطين ، لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط وإنما يعيشون كما تعيش النمل ، وتدفعهم الغريزة وتدبر أمورهم إرادة سادتهم فى القصر ) ص ٣٣ •

وشخص هذا المكان الذين تدور بهم الأحداث هم : محمود الاسكاف وابنته خديجة وولده أحمد •

هذان المكانان يقعان أمام هذا النهر ، وعلى الضفة الشرقية منه ووجود هذا النهر فى هذه القصة وجود شبه أسطورى •• أو قل وجود ميثافيزيقى ـ ان صح القول ـ ( لأنه نهر عجيب من الأنهار ، لا يعرف الناس له منبعا ولا مصبا وإنما يروونه يسعى من الشرق الى الغرب دون أن يستطيع أحد أن يقول : من أين يأتى ؟ ولا الى أين يجرى ؟ •

وقد حاول المستكشفون أن يعرفوا من أمره



الأهجار الأخرى فى الأرض فلم يبلغوا من ذلك  
شيئا ( ص ٣٥ .

— هل رأيت نهرا فى حياتك مثل هذا ؟ !

المهم .. ما هى الأحداث التى تدور على هذين  
الموقعين .. ؟؟

فى الموقع الأول وفى قصر السيد رءوف نرى  
الشاعر الشيخ يمشى متوكئا على عصاه بعد ما خرج  
من جناحه الذى يقيم فيه عن يمين القصر متوجها الى  
صاحب القصر ، حيث تعود أن يجلس معه فى غوسق  
جميل على شاطئ النهر ، ولكن البستاني عثمان يخبره  
أن سيد القصر رءوف فى مكتبه منذ الصباح يجلس فيه  
غائبا .. مهموما .. فلا يهتم الشاعر الشيخ بهذا  
الكلام فيطلب القهوة من الخادم ويذهب الى النهر  
يتحدث اليه ويكتب عنه . ( وكان هذا الشاعر الشيخ  
وحده بين أهل القصر وما يتصل به من الأجنحة والدور  
هو الذى يعنى بهذا النهر ويريد أن يستكشف أسرار  
ويعرف دقائق أمره ) ص ٣٧ .

ويظل الشاعر الشيخ واقفاً في مكانه أمام النهر  
على حالته إلى أن يجيئه الخادم كي يخبره أن السيد  
رءوف يطلب لقاءه .. ولكنه ينصرف عنه ويذهب مرة  
ثانية إلى النهر يحادثه ( وما من شك أن حديث النهر  
كان أحسن موقفاً في نفس الشاعر من حديث هذا  
الخادم الذي لم يكن ينبئه بشيء جديد ) \*

( ولكن النهر كان يأبى دائماً أن يقرأ على الشاعر  
أو يملأ عليه شيئاً غير ما يريد هو .. وكان الشاعر  
يجد في هذا الإباء والامتناع ما يشقيه في وقت واحد :  
يشقيه لأنه يعده عما يجب ويرضيه لأنه يأتيه بما يلذه  
ويتمتع ) ص ٤٤ \*

– ويستمر الشاعر الشيخ على هذا إلى أن يأتيه  
ابن صاحب القصر وهو فتى نيف على العشرين يسمى  
نعيماً .. ليخبره أنه يبحث عنه لكي يودعه حيث أزمع  
على السفر قبل أن يقبل الليل ويتحدث إليه الرجل  
متسائلاً عن السبب \*

قال نعيم وهو يتكلف الضحك ويخفي سخرية

مرة : فانها المأساة يا سيدى ! لقد زلزلت الأرض  
وغضبت السماء ، وأظلمت الدنيا وفسد في حياة القصر  
كل شئ .

قال الشاعر وماذا بك .. ؟

قال نعيم : ذاك آن الشيوخ ينسون الشباب ،  
أو قل انهم يستيقنون الشباب لأنفسهم ، ويستأثرون  
بما يتيح لأصحابه من فرحة وما يسبح لهم من تجاوز  
الحدود يرون ذلك سائما حين يتصل بأشخاص ويرونه  
حراما حين يتصل بغيرهم من الناس ، وعندما يخبره  
الشاعر الشيخ أنه لم يفهم شيئا .. نعرف . نحن - بعد  
ذلك أن سيد القصر ( رءوف ) والد الفتى نعيم قد طرده  
من القصر وتخلص من زوجه أم نعيم بالطلاق والسبب  
في ذلك وكما يصرح نعيم هو أنه أحب فتاة من أهل  
القرية ، راقه منظرها وفتنة سحرها ، فضبت اليها نفسه،  
وانتهى الأمر بها الى غايته من الالتم .. خدعها  
فانخدعت .. ونعيم هذا يشكو هذا الأمر الى  
( الشاعر الشيخ ) قائلا : ( وأنت شاعر يا سيدى تعرف

أن الحب يغير الأوضاع بين المحبين ، فيجعل السيد عيدا والعبد سيدا ) ويرر ( نعيم ) سخط أبيه عليه بقوله ( فما أرى انه يسخط على الأبناء بي أن أنزل الى مكانه دون مكاتني ، وخوفا على أن أتجاوز بهذا الحب المجنون واللهو وارفع به الى طور آخر يخشاه كل الخشية ويأباه أشد الأبناء ، ولو قد حدثته يا أبي أريد أن اتخذ هذه الفتاة لي زوجا ، لجن جنونه وضل ضلاله ) ص ٥٦ •

— ويعلن أن الفتاة قد وقمت من نفسه موقعا خاصا ، واستقر جها في قلبه استقرارا مكينا وليس يرى من الاقتران بها بدا .. ولهذا السبب طرده أبوه .. ويخرج الفتى نعيما معانبا ( ولكن سأخذ خديجة لي زوجا ، فإن استطعت وأن أردت أن تلقى هذا النبا الخطير الى أبي في رفق فأفعل ، وإن عجزت أو آيت فسيأتيه النبا من طريق لا رفق فيه ولا لين •

— وبعد هذا يأخذنا الكاتب الكبير الى الموقع الثاني ليروي أحداثا جديدة حيث هذا الزقاق الضيق

في القرية ، وحيث محمود الاسكافي والد ( خديجة )  
وأخوها ( أحمد ) لنجدده يعمل ( في ترقيع نعل  
أو اصلاحه ) وهو ت كما وصفه طه حسين ( في أكثر  
أحواله صامت كالشكلم لا يوجه الى أحد حديثا ،  
ولا يكاد يجيب أن وجه أحد اليه الحديث ) ص ٦٥ .

وبيته هذا مكون من حجرتين أحدهما يأوى إليها  
الشيخ الاسكافي ( محمود ) وإيراته ( محبوبة ) ،  
والحجرة الثانية يأوى إليها أبناء الدار وهم ثلاثة :  
أكبرهم ( أحمد ) قد نيف على العشرين وكان يبلغ  
الثلاثين وهو فتى ( طوال مظلم الوجه قوى الجسم  
قليل الكلام حائر الطرف لا تكاد عينه تستقر على شيء ،  
ولا تراه الدار الا حين تغرب الشمس ) وأصغرهم  
( على ) لم يتجاوز الثانية عشرة بعد وبين هذين الابن  
من أبناء الدار ( خديجة ) - التي كادت تبلغ العشرين  
والتي لم يدر من أين جاءت ولا لأى أبويها يمكن أن  
يضاف جمال وجهها وهدهوء وأمن عينيها الجميلتين .

هذه الفتاة هي التي أغريها الفتى ( نعيم ) ابن  
صاحب القصر الضخم الفخم - والاب ( محمود )  
الاسكاف يعلم كما تعلم امرأته محبوبة أمر هذه العلاقة  
التي تربط ابنتها خديجة بهذا الفتى - ابن سيد  
القصر - ففرحا به فرحا حزيناً وهما أن يكفيا ابنتهما  
( خديجة ) وينصحاها بالابتعاد عن هذا الفتى . فلما لم  
يبلغا شيئاً تواميا بكتمان الأمر على ابنتهما الفتى  
( أحمد ) الذي عاد في يوم ثائراً يكظم ثورته ، يلقي  
نظرة داخل الدار ولما لم يجد أخته ( خديجة ) في  
الدار يتركهما خارجاً .. ليعلم الاب الشيخ أن ولده  
يسمى في أثر أخته خديجة ، ويعلم خوفه من عدم  
عودته !! ونعرف أن أحمد قد ( لحق بأخته في العاصمة  
وقتلها وأسلم نفسه للشرطي ، معترفاً بأنه اقترف هذا  
الاثم دفاعاً عن شرفه المالكوم ) ص ٧٣ .

ثم يعود بنا الدكتور الأديب الى حيث القصر  
الضخم الفخم - كما يصفه لثرى بقية الأحداث :  
الشاعر الشيخ مازال واقفاً أمام النهر .. ثم يتوجه الى  
صديقه سيد القصر ليرى أمر الابن ( نعيم ) وأمر عبوس

هذا الصديق صاحب القصر .. وبينما هو واقف  
ينتظر أن يأذن له سيد القصر بالدخول عليه في مكتبه ،  
يكشف لنا الدكتور العميد عن شخصية هذا الشاعر  
الذي يحدث نفسه ، ومن خلال هذا الحديث نعرف أنه  
كان بالثنا .. ضائعا لاحظ له في هذه الدنيا ولا مال ..  
يعيش كل ليلة عند صديق يلتبس منه الطعام  
والشراب وما إلى ذلك حتى تعرف على هذا السيد  
زهوف في ليلة سهر فيها داخل مقهى ، فتعرف عليه  
وأسمعه بعضا من أشعاره فاتخذته صديقا وتديبا وجعله  
يسكن في جناح يجاور ، القصر .. وعمل - كذلك  
على نشر عدة دواوين شعرية له .. ولكنه يشعر في قرار  
نفسه أنه كالخادم في هذا القصر يقول ؟ ( أنا على  
كل حال خادم من خدمه ، الأيسر له ما يحتاجه من  
حياته المادية ولكنني أعينه على احتمال هذه الحياة  
وأيسر له القليل الذي يحتاج إليه في حياته العقلية )  
ص ٨٤ •

- ونحن حتى الآن لا نعرف من أمر هذا السيد  
( صاحب القصر ) شيئا ولهذا فإن الدكتور يقرر أنه

( شيخ تقدمت به السن شيئاً ، ولكنها لم تبلغ من قوته  
ولا من شباب قلبه شيئاً ، وانما هو رجل طوال يميل  
الى البدانة أكثر ما يميل الى النحافة ، وهو رائق  
الطلعة ، رائق المنظر لا تقتحمه العين ، وانما تتصل به  
قطيل الاتصال ، تجد شيئاً من اللذة في النظر اليه ،  
والى وجهه الذى لا يخلو من جمال مهيب ، والذى  
تضطرب فيه عينا صغيرتان تفاذتان ، فيهما شيء من  
حدة ولكنهما تصوران هدوءاً ودعة وثقة ، نقرأ فيهما  
الايمان بالنفس ) ص ٨٩ •

— ونستمر مع ( طه حسين ) الى أن يقرر أن هذا  
السيد ( لم يكذب يبلغ أول أطوار الشباب حتى استجاب  
لدعاء شهواته وغرائزه ، فعبت ما شاء له العبث ،  
وأفسد ما شاء له الفساد وهم أبواه أن يكفاه عن بعض  
ذلك في تلطف ورفق ، فلم يبلغا منه شيئاً ، وانما كان  
لومهما له اغراء ونصهما له دفعا الى الغلو  
والاسراف ) ص ٩٢ •

— فكان صاحب نزوات طالما آذت زوجة ،



وطالما آذته هو .. وطالما أرهقته وأرهقت زوجته  
من أمرها عسرا ويمكن أن يقال أن نعيما ابنه قد نشأ في  
بيئة ظاهرها النعمة ، وباطنها النقمة كل شيء من حوله  
ميسر إلا أمر أبويه ، فانه كان عسيرا أشد العسر  
ملتويا أعظم الالتواء ( ص ٩٤ .

ونجد الشاعر ( الشيخ ) يدخل على رءوف سيد  
القصر يتحدث اليه في أمر ابنه نعيم الذي يسافر  
أو يريد السفر ، فيعلمه الأب أنه لا بد له أن يسافر  
وعندما يعلم أن ( خديجة ) قد قتلت تصيبه الدهشة  
ويصرخ متسائلا : كيف قتلها أخوها ، أو أين قتلها  
وهذا القتل الذي تم قد نه رءوف سيد القصر الى  
شيء لم يكن يفكر فيه وهو ان أهل القرية ينزعون الى  
شيء جديد ، ويجب أن تسير معهم سيرة جديدة ، وأن  
تلائم بين طموحهم هذا الطارئ وسياستنا لأموورهم  
.. الخ ( ص ١٠٢ .

وفي نهاية الفصل ١٢ نرى السيد ( رءوف ) يلقي  
بالسؤال الأسطوري الى الشاعر الشيخ : أنظر الى  
ما وراء النهر أترى شيئا ؟؟

فمد الشاعر طرفه ثم رده ، ثم قال : تريد هذه النار التي تتألق على هذه القمة ؟؟

قال رءوف :

نعم .. متى عهدك بها ؟

قال الشاعر :

منذ أشهر .

قال رءوف :

ولم تكن تراها قبل ذلك ؟

قال الشاعر :

لا أعلم أنني رأيتها قبل أن تلم الخطوب ، وهنا  
أطرق رءوف أطرافه طويلة ويعلن للشيخ ، في نهاية  
هذا الفصل أن الفتاة ( خديجة ) قد وقعت من نفسه ،  
موقعاً غريباً ، قبل أن يقنن بها نعيم . وفي الفصل  
الأخير من هذه القصة يترك الشاعر الشيخ متوجهاً إلى  
مكتبه يسجل يومياته في دفتره .. ويعلن دهبته هذه ،

والتي سببها موافقته لسيد القصر على أن هناك أهباً  
تتألق على هذه القمة .. رغم أنه لا أهب هناك  
ولا نار .

- - ويستمر الشاعر الشيخ على حاله من العبوس  
والفكير ( لقد ظهر على وجهه شيء من التردد اضطرب  
القلم في يده بعض الاضطراب ثم ثاب اليه هدوءه ولكنه  
هدوء مر ، ان صور شيئاً فأنما يصور حشرات ،  
كانت تمزق قلبه تمزيقاً ) .

- - وتنتهي أحداث هذه القصة ، التي لا نعرف  
ان كانت قد انتهت - بالفعل - أم أن هناك بقية  
لها لم ينشأ الدكتور .. فالأرجح كما يذكر الدكتور  
( محمد حسن الزيات ) - في مقدمته لهذا الكتاب -  
ان الدكتور طه حسين قد شغل عن هذه القصة لسبب  
من الأسباب شغله ما كان يهيمه من هبوم الأدب  
والتعليم ، كما شغله عمله وزيراً للمعارف ، اذ تولى  
هذه الوزارة في عام ١٩٥٠ ، فعاد الى سياسة ، تكافؤ  
الفرص ، يسير على هداها فأعلن مجانية التعليم الثانوي

كله والى المطالبة بالعدل الاجتماعى أساسا سلبا  
للمجتمع الصحيح ، السليم ، ولكن الوزارة سقطت فى  
أول عام ١٩٥٢ م وعادت السلطة الى أيدي من كانوا  
يخشون أن يؤدي تكافؤ الفرص فى التعليم وغيره الى  
ذك نظام المجتمع المصرى وبقيت فى أيديهم شهورا  
قليلة ، قامت بعدها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م (١) .

وعلى كل الأحوال سوف تتعرض لهذه القصة  
على وضعها الخالى .. - كا هى - لا حاجة بنا الى  
البحث عن صحة مما يقال : من انها قصة لم تتم بعد  
أو : انها قد تمت بالفعل .

### ٣

- ما هو الاطار الذى ضمت بداخله أحداث هذه  
القصة ؟؟ وهل من حقنا أن نطبق عليها معايير النقد  
بمقاييس القصة - بمعناها الواسع .

ان الاطار الذى يضم أحداث هذه القصة ، والتى  
هى فى جوها العام شبيهة بجو القصة القصيرة ، من

حيث اللحظة المختارة حيث أن حوادثها تتم لحظة دخول الشاعر الشيخ لكي يقابل صديقه • سيد القصر رءوف ، وتنتهي بعد أن تمت هذه المقابلة ، اذن فالزمان •  
 - هنا - غير ممتد والمكان - أيضا - غير متعدد ، ولكن عن طريق أسلوب القصة المعتمد على عدة أشياء •  
 كالتعليق والتحليل النفسي وأحداث النفس - عن طريق كل هذا - تستند بنا القصة ، فنشعر وكأن الزمان قد تغير والمكان قد اختلف ، وأن هناك أحداثا ومواقف تنجدد وكلها - في الحقيقة - تنبع من لحظة واحدة يحكمها زمان واحد ومكان واحد • • ولأن أسلوب القصة • ليس هو هذا الأسلوب الذي يستخدم - عادة - في القصة - بوجه عام - لاعتمادها أشياء أخرى - سوف نوالى ذكرها - فلا يحق لنا اذن أن نطبق عليها معايير النقد الموسوعة لهذا النوع من الابداع الأدبي ، حتى لا نظلم الكاتب في أشياء - هو - لا يريدتها - بالطبع - ، وسوف يكون منطلق النقد اذن العمل وحده • • مجردا من كل مقاييس أو معايير مسبقة •

**أولا - موقع قصة ما وراء النهر بين الحكاية والقصة :**

— القصة هي التي فرضت على هذا السؤال لأنها اعتمدت — أوسع ما يكون الاعتماد — واتسعت مجالاً على أرحب ما يكون المجال على أسلوب الحكاية ( الذي يهدف إلى الإصلاح والتقويم والتوجيه والسخرية من أشياء والفكاهة اللاذعة — بعض الأحيان — كما أنه يحوى العبرة ويقدم بعضاً من الواقع للأليم ، ولكل ما سبق يطفى هذا الأسلوب .. عليها ليصبح أكثر تأثيراً من أسلوب القصة المعروف والتي لا تعتمد ، على ما سبق ذكره بقدر اعتمادها على رسم الشخصيات في إطار من الأحداث المتطورة لتصل بنا في النهاية إلى شيء تريد أن نقوله لنا وقد يحل هذا الأسلوب بعضاً من المزايا التي تعمل على إنشاء علاقة بين القارئ والمتلقى — كما يريد الدكتور العميد — وتكون هذه إما مباشرة في أحيان ، وغير مباشرة في

(1) د. محمد حسن الويات : مقدمة ما وراء النهر — الطبعة الثانية ١٩٧٧ م — دار المعارف .

أحيان أخرى .. وما يجعلنا نقرر هذا الأمر ، ما نجده في هذه القصة من تعليق الدكتور ( مله حسين ) نفسه - ككاتب - وكأديب وكفكر ، على شخصيات القصة واصفا سلوكها ، مستطرذا الى استحضار أحداث أو مواقف قد تم حدوثها من قبل ، وهو في هذه القصة ينحو نحو الهدف التعليمي الذي يجعله ، يستنكر تصرفات بعض شخصيات القصة أو يسخر من تصرفاتها أو يغضب منها وعليها .

- فمن ناحية استنكاره نرى الدكتور العميد عندما يتحدث عن الشاعر ( الشيخ ) يقول : « وهل حياة الشعراء الا مزاج من الشقاء والرضا ولو خير الشاعر لأختار أن تتصل خلوته الى النهر أطول وقت ممكن وأن يحتل من شذوذه واستبداده ، ما شاء النهر أن يحتل .. ولكن الشاعر لم يكن مخيرا في شيء .. ومتى نخير الشعراء وأصحاب الفنون في شيء ؟؟ انما هم عبيد الطبيعة ، وتفرض عليهم ما فيها من جمال . وقبح ومن نعيم وبؤس ، وتخيل اليهم أو يخيلون هم الى أنفسهم انهم أحرار يستبطنون من الطبيعة أسرارها ،

ويصوغونها في صيغهم الفنية المألوفة شعرا أو رسما  
أو نحتا أو تصويرا » ص ٤٣ •

ومن ناحية السخرية من تصرفات الشخصية تضرب  
هذا المثال :

( ثم أن صاحب القصر لا يشق على نفسه وعلى  
أهله وذوى خاصته وحدهم حين يتورط ابنه في خطيئة  
من الخطايا ، وإنما هو معلن لثورته مشيع لسخطه ،  
يريد أن يشرك الناس جميعا والأشياء جميعا فيما يجد  
فهو يتجهج للزائرين ويلقاهم بوجه عابس يفيض  
ويتحدث إليهم من طرف اللسان ، وما زال يتكلف من  
ذلك فتونا وفتونا حتى يضطربهم إلى أن يسألوه عن  
أمره .. فإذا فعلوا أنباهم بهذه الأحداث الجسام  
التي يحدثها ابنه الطائش المفتون .. الخ ) ص ٤٠ •  
— ومن ناحية غضبه من الشخصيات نجد :

أولا : غضبه من سكان الربوة لأتهم ( قساة  
القلوب • غلاظ الأكباد ، يؤثرون أنفسهم بكل شيء  
ولا ينزلون عن غيرهم عن شيء ) ص ٣٣ •



١٠- ونجد ثانيا : غضبه على سكان القرية « لأنهم  
أحرار كالعيد وعبيد كالأحرار .. ليسوا راضين  
ولا ساخطين لأنهم لا يعرفون الرضا .. ولا السخط ،  
وانما يعيشون كما تعيش النمل تدفعهم الغريزة وتدبر  
أمرهم ارادة سادتهم في القصر ( ص ٣٣ ) .

١- وهو صحفي وخطيب - في بعض الأحيان -  
وناقدا وفيلسوف في أحيان أخرى .

فهو صحفي لأنه يقوم بتلك « النمذجة الصحفية »  
كما يقول د. ابراهيم أمام ، على أساس انتزاع بعض  
الصفات وتحريرها من سياقها العام » ، ثم ابرازها والقاء  
الضوء عليها مع اعطاء مغزى لها يميزها ويسر فهمها  
ومن الطبيعي ولأزال الكلام للدكتور ( ابراهيم أمام )  
أن تقوم هذه العملية على أساس التوضيحية بالتفاصيل  
وعدم الاحتفاظ بالنسب الحقيقية في الشخصية الأصلية ،  
ومن أجل خلق النموذج المبسط الذي يفهمه الناس (٢) ،

(٢) نقلا من مقال د. عبد العزيز شرف - فن المقال القصصى  
في أدب طه حسين - مجلة القصة العدد ١٤ ديسمبر ١٩٧٧ - السنة  
الرابعة ص ٧ .

ولعل في هذه الرؤية تفسير لقول الدكتور طه حسين ..  
( ولست أخفى على القارئ اني حائر أشد الحيرة  
في أمر هذا الفنى ، كما اني حائر أشد الحيرة في أمر  
أهل الربوة جميعاً ، فكلهم يلج على أن أجده له  
اسماً يتسنى به ويميزه بين غيره من الناس وكلهم على  
في أن الأشخاص لا يستكملون وجودهم الا اذا عرفت  
اسماؤهم التى تحقق التمايز فيما بينهم وتخرجهم من  
هذا الوجود الوهمى الذى يشبه العدم...الخ ) ص ٤٤ .

— وهو خطيب عندما يرتفع صوته بالوعظ  
والارشاد والقاء العبرة . وهو ناقد فيلسوف يتدخل في  
أغلب الأحيان ليقطع مسار الأحداث ليضع تعليقا  
موجها الى القارئ بطريق مباشر ، ولعل هذا ما يفسره  
قوله : ( فليست القصة حكاية للأحداث وسردا للوقائع  
كما استقر على ذلك عرف النقاد .. وانما القصة فقه  
نحية الناس وما يحيط بها من الظروف ) ص ٣٠ .

وقوله : ( وأهدى الى كل واحد اسما يميزه  
وينحى حظه من الوجود الذى يطمح فيه ويطمح اليه ،

وان كان الوجود في نفسه ليس شيئاً يستحق الطمع فيه  
أو الطموح اليه) .

وقوله : ( ولكن ارسطاطاليس قد أخطأ تعريف  
الانسان حين قال : انه حيوان ناطق ، ولو وفق الى  
الصواب لقال انه حيوان أحمق ، وليس أدل على حقيقته  
في طمعه في الوجود وطموحه اليه وجه للحياة ) ص ٤٧ .

وقوله : ( فالحياة لا تحب الناس الا حين يعملون  
لكسب حياها وهي لا تحتقر الذين يعيشون عيالا على  
غيرهم ) ص ٨٦ .

من كل ما سبق يتضح لنا غلبة أسلوب الحكاية  
على الأسلوب القصصي بمعناه الواسع ولو أن هذا  
الأمر لا يخفى أن الدكتور الأديب قد التزم في بعض  
المواقف بما فرضه عليه أسلوب القصة من استخدام .

١ - فنجد - لديه - الحوار المتع الأسلوب .

قال الشاعر الشيخ « عم صباحا يا عثمان ، في  
المكتب ؟ ماذا سيصنع سيدك في المكتب ؟ أيمكن أن  
يعيش الناس تحت المقوف » وبين الجدران حين تصفو

السماء وتتألق الشمس وتزين الأرض ويتهاذى النهر  
على هذا النحو ! دغه فى المكتب يا عثمان ولا تأذنه  
بىكافى إلا أن يسألك ولكن أرسل الى القهوة ، قدحين  
لا قدحا واحدا ، وقف على ابراهيم حتى يتقنها ، فأنت  
تعرف القهوة التى أحب .. الخ الحوار ) ص ٣٤ •

٢ - ونجد بلاغة التصوير الواقعى •

يصف محمود الاسكاف وهو جالس الى عمله  
قائلا : ( وقد يأخذ الرجل قطعة من الجلد بكلتا يديه  
يشدها الى يمين ويشدها الى يسار ، وقد يضع طرفا  
من أطرافها فى فمه كأنه يريد أن يقضمها ، وهو لا يريد  
قضمها ولا التهاما ، وإنما يريد أن يمتحن متانة الجلد ،  
فهو يسك طرفا منه بما بقى من أسنانه ، ويسك  
طرفيه الآخرين بيديه وهو يشد الى هذه الجهة وإلى تلك  
يستيقن أن هذا الجلد متين صالح لترقيع هذه الثعلب  
أو تلك ) ص ٦٥ •

٣ - ونجد الصورة التى هى أقرب الى اللوحة  
التشكيلية منها الى أى شىء آخر :

٥٠ - وصندوقا صغيرا قد وضع في زاوية من زواياه.  
 وجماعة من هذا الخبز العريض الرقيق المستدير قد  
 رص بعضها على بعض وارتفعت في زاوية من زوايا  
 الحجرة كأنها العمود ، تأخذ منها الأسرة حين تريد أن  
 تطعم ، وما تزال تأخذ منها والعمود ينخفض ويتضائل ،  
 حتى إذا دنا من الأرض علت محبوبته صاحبة الدار  
 على تجديدده ورفعته ، فكان اعداد الذرة واشعال الفرن  
 الى جانب المصطبة التي يعمل عليها الشيخ وانطلاق  
 الدخان ، ويضطر الشيخ في ذلك اليوم الى أن يأخذ  
 جلده ونعاله وأدواته ويجلس بها على الأرض أمام  
 الدار ٥٥ الخ ( ص ٦٦ .

٤ - وتجد بساطة الشخصيات ، رغم أننا تأخذ عليه  
 عدم تعميقها حتى بدت بعضها سطحية التكوين مهترئة  
 البناء ٥٥ كشخصية ( خديجة ) - مثلا - كذلك أمها  
 ( محبوبه ) التي لا نعرف عنها شيئا ٥٥ ورغم هذا  
 فإن بساطة الشخصيات قد جاءت نتيجة لعدة أمور .  
 منها :

١ - الكشف الداخلي للشخصية عن طريق  
المناجاة .. ( حديث النفس ) :

ت نجد الشاعر الشيخ يتناجى ( لقد كنت في تلك  
الأيام - لا ردها الله بائسا ممعنا في البؤس ، شقيا  
مغرقا في الشقاء ، بارعا في كل شيء الا فيما يوفر على  
حياة هنية وادعة ، لا أجد فيها الجوع في أكثر أيام  
الأسبوع ولا أتعرض فيها لذلك الخزي الذي أذكره  
الآن ، فتدور بي هذه الحجرة وأود لو كنت نسبا  
منسبا .. لقد كنت أغدو من غرفتي تلك الصغيرة حين  
يرتفع الضحى ، مقفر النفس فارغ الجيب .. صفر  
اليدين لا أجد من المال أيسر ما يتيح لي أن أجيب  
ما يقيم الأود .. الخ ) ص ٧٩ .

٢ - الاعتراف وهو في قصة ما وراء النهر  
ذو وجهين :

- الأول - الاعتراف الشخصي .

الثاني - الاعتراف عن الغير .

( ١ ) بالنسبة للجانب الأول وهو « الاعتراف

الشخصي» فنقصده به اعتراف الشخصية عن شيء فعلته.  
وهذا ما نجده عند رءوف سيد القصر عندما يعترف الى  
الشاعر الشيخ بان الفتاة التي أغر بها ولده قد وقعت  
في نفسه - هو الآخر - موقعا غريبا .. يقول :

\* - قال الشاعر الشيخ : وفي القصة اذن شيء غير  
ما علمت ؟؟ قال رءوف نعم .. ان هذه الفتاة كانت  
قد وقعت من نفسي موقعا غريبا ، قبل أن يفتن بها  
نعم ص ١٠٨ \*

( ب ) بالنسبة للجانب الآخر وهو الاعتراف عن  
الغير فيقصده به أن تعترف شخصية حاضرة عن شيء  
تخفيه شخصية أخرى - سواء كانت هذه حاضرة  
أو غائبة : وهذا ما نجده عندما يشور نعم متحدثا الى  
الشاعر قائلا :

« انك رفيق أبي منذ صباه وشريكه في هزله  
وجده ، فهل تعلم أنه لقي من أبيه مثل ما ألقى منه ؟  
وهل تعلم أنه وفق تماما لأن يخفي عبثه كله على أبيه ؟؟  
أم هل تعلم أنه كغيره من الناس له في أثناء شبابه

وجد وأسرف على نفسه وعلى أسرته في اللهو أحياناً ،  
فأنكروا عليه في رفق ونصحوا له في حب ، ووجهوه إلى  
الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وأكاد أقطع بأنهم لم  
يلغوا مما أرادوا شيئاً » ص ٥٢ •

### ٣ - التحليل النفسي :

وقد كان الدكتور طه حسين مولعاً به ، حيث أن  
وجوده في باريس قد ترك في نفسه أثراً - عندما أطلع  
على كتابات الأدباء - هنالك - من أمثال  
( رومان كولس - كورني - راسين - فولتير -  
الفريد كايور ) فتأثر بهم مما دفعه إلى مسألة التحليل  
النفسي هذه التي تنتضح عنده أكثر في مجموعة الحب  
الضائع ، وتنتضح عنده - كذلك - في هذه القصة ..  
حيث نجد رهوف سيد القصر • الثرى - في آخر  
القصة - وقد تحطمت نفسه بعد ما تخلص من زوجه  
بالطلاق وبعد ما طرد ابنه ، وعلم أن خديجة ابنة  
( محمود الأسكاف ) قد قتلها أخوها « أحمد » انتقاماً  
لإسرف أسرته ، بعد ما غرر بها ابنه الفتى المدلل ، وفي



نفس الوقت فان هذه الفتاة قد وقعت في نفسه  
هو - من قبل - كما يعترف موقعا غريبا .. كل هذه  
الأسباب - مجتمعة - عملت على تعمق الأمور أمامه  
وحوله وخلفه ، مما جعله يهتز نفسيا ، وقد بدا هذا  
الاهتزاز النفسى يظهر في سلوكه وتفكيره اذ يتخيل أن  
هناك على القمم البعيدة نارا مشتعلة لا يعرف ولا يتذكر  
من أين جاءت .. وهذه النار - في حقيقة الأمر -  
وهم نتاج هذه الحالة النفسية التى يعرضها علينا  
العميد ، ممللا أسباب ودواعى هذه التصرفات التى  
تجعل صديقه الشاعر الشيخ يصرح بأن صديقه ( قد  
ألم به طائف من جنون ) ص ١١٠ .

- لكن الأمور السابق التعرض اليها من كشف  
داخلى للشخصية واعتراف بجانيبه ( الشخصى وعن  
الغير ) والتحليل النفسى .. كل هذه الأمور جعلت  
الشخصية فى القصة بسيطة فى عرضها .. مقنعة فى  
تصرفاتها ، فنحن - مع قلة هذه الشخصيات - نجد  
تعدد التناول أو بمعنى آخر نجد تمايز الشخصيات ..  
فهناك رءوسف سيد القصر ، شخصية أنانية ، ( تقرأ فى

هاتين العنيتين الأثرة في أشع صورها ، وفي أطرف  
صورها - أيضا - وهذه القراءة لا تكذبك ولا تترك  
عن الحقيقة الواقعة فصاحبنا أثر كاشع ما تكون  
الأثرة ، وكأطرف ما تكون الأثرة في وقت واحد ..  
فنجده يتخلص من زوجته ( بالطلاق ) ويتخلص من ابنه  
بالطرد بسبب حب هذا الابن لهذه الفتاة البائسة  
( خديجة ) ورغبته الصادقة في الزواج بها وهو ليس  
غاضب فيما يبدو لأن ابنه يخالفه وسوف يتزوج بنتا  
من بنات القرية .. فقيرة .. حقيرة .. ولكنه غاضب  
لأنه قد أحب ، نفس هذه الفتاة من قبل .. أبعد  
هذا أنانية وأثرة ؟؟

- ونجد الابن الفتى « نعيم » شخصية متمردة  
على واقعها ، رغم ثراء والده ، ورغم التميم الذي يعيش  
فيه ، نراه رغم كل هذا يقرر أنه طالما أحب هذه  
الفتاة « خديجة » وأغر بها فلا بد أن يتزوجها مهما كلفه  
هذا الأمر من عناء ، فهو متمرد على أبيه ، متمرد على  
الطبيعة التي ينتمي إليها ، طبقة الأغنياء .. يحاول أن  
يصلح ما أفسده ، يقول ثائرا وهو يتحدث الى الشاعر

الشيخ : ( حدثني عما تقدمون من الخير والبر ، الى  
أهل القرية حين تسخروهم في غير رفق ولا لين وفي غير  
محبة ولا مودة وفي غير انصاف ولا عدل لمنافعكم  
وحيث تستأثرون من دونهم بشمرة ما يبذلون من جهد  
ويحتلمون من عناء ، ان أرض القرية لخصبة تنبت  
الغنى ، ولكنها تنبت الغنى لكم ، ولا تنبت لأهلها  
الا فقرا وبؤسا وحرمانا ) ص ٥٥ .

— ونجد ( أحمد ) شخصية — رغم أنها ثانوية —  
الا أنها قد أدت دورا في هذه القصة ، نجده يعيش  
وجوده بشيء واحد هو الشرف ، ولو فقدته فلا قيمة  
بعد ذلك لهذا الوجود .. نراه يقتل أخته ( خديجة )  
على الرغم من انه يحبها حبا عظيما !! لأنها لم تحافظ  
على سبب الوجود .. ونجد الشخصية المناقضة ،  
الانتهازية متمثلة في « الشاعر الشيخ » فهو يدفع  
بصديقه الى الوقوع في الخطأ ، لو علم ان هذا الأمر  
فيه ارضاء لنفس هذا الصديق ، ويحدثه بمعمول  
الكلام وهو في داخل نفسه يحتقر هذا الصديق في  
سلوكه وتصرفاته .. ولا يستطيع أن يواجهه لأنه يخاف

أن يفقد مكانه في الراحة والهناء بجوار هذا القصر  
الفخم الضخم .. فهو - اذن - شخصية منافية ..  
اتهازية السلوك .. ( لقد رضى اخلاقه على علانها  
فانا اتجنب غضبه وأتلمس رضاه ، لأنى أجد في ذلك  
راحة وروحا ولونا من ألوان السعادة ، لا أحب أن  
أصرفه عن نفسه ولا أحب أن يصرفه عنى صارف ، وأنا  
من أجل ذلك أحب الكذب حين يتيح لى إثراق نفسه  
ووجهه ، وأكره الصدق حين يعرضى لغضبه على  
أو أزوراره ) ص ٨٣ .

- ونجد الى جانب الشخصيات السابقة شخصية  
« محمود الاسكاف » وامراته « محبوبة » وكل منهما  
يمثل الشخصية السلبية العاجزة فلم يتخذ أى منهم  
موقفا ما تجاه ابنتهما « خديجة » على الرغم من علمهما  
بهذه العلاقة التى تربط الفتى سيد القصر « بخديجة » .

يتبين لنا من كل ما سبق أن الدكتور ( طه حسين )  
قد عرض لنا نماذج متنوعة للشخصية ، ان دلت على  
شئ ، فأنما تدل على ذكاء الكاتب فى التقاط تلك  
السمات التى تتصف بها الشخصية المصرية ويبلور

وجودها في الواقع الحي الذي كانت تحياه تحت الظلم والبؤس ، والفقر والاستعباد ، وهو من وراء كل هذا يبحث عن الاصلاح الاجتماعى ويدعو له .

ومما سبق عرضه وانهاء لرأينا في مسألة موقع هذه القصة ، بين الحكاية والقصة . يتضح لنا أنها اكتسبت من كلا الاطارين أسلوبا لها .. لا يهه في ذلك أى الطريقتين يسلك ولكن المهم عنده قيمة ما يوصله اليها - نحن المتلقين - وهذا أمر قد تحقق بالفعل ولكنه يجعلنا نفكر في شئ آخر وهو :

ثانيا - هل يمكن ان نعتبر هذه القصة متافيزيقية لا ترتبط بمكان او زمان ؟؟

- ما جعلنا نظن هذا الظن - وقد يكون بعيدا عن الصحة - ما نراه في هذه القصة من عدم تقديم دلالة مباشرة للأشياء . في بعض الأحيان - وانما هي دلالة أشبه بدلالة النسيب ، وبها تتردد النفس بين آفاق بعضها حلو وجميل نتيجة لما فسر من انفعالات ، وبعضها غامض ومعتم .. كل هذه الأسباب هي التي أحالتنى الى هذا الظن ، والرأى الأصوب ان هذا

ظن لا يقع موقع اليقين على طول القصة والا لتعارض  
هذا بالطبع - مع المضمون الذى ينبغى على القصة  
أن تحمله وتوصله لا أن تكون منفصلة عن السياق  
الاجتماعى أو الواقع السياسى ، الذى يحكم وجود  
هؤلاء الناس الذين جاءوا أو حضروا فى هذا العمل .  
حضورا واقعا !! خاصة وأن الواقع الذى كانت تعيشه  
مصر فى زمن كتابة هذه القصة - وهو واقع سنة ١٩٤٦  
كان واقعا يتطلب عدة تصورات بها يطمح  
كتاب - المرحلة - أن تتغير الظروف القائمة ، وهذه  
هى مهمة الفن فى اعتقادنا وهذا ما يجعلنا نحس كتاب  
الدكتور طه حسين « المذبذبون فى الأرض » بل ونعيشه  
بشاعرا - على الرغم من المباشرة التى جاءت فى  
الكتابة ، ونعتبره - كذلك - تصورا ثوريا لما يجب  
أن يكون ، ونتيجة منطقية لما هو كائن .

- ولكن قصة ( ما وراء النهر ) لو وضعت على  
خارطة الواقع المصرى ، فى تلك الفترة لوجدنا أنها لم  
تتناول - منه الا جزءا صغيرا فقط رغم أنها تتناول  
هذه العلاقة التى تربط ما بين الفقراء والأغنياء .

الا انها قد تناولتها في حدود ضيقة انحصرت فقط في مطلق من المطلقات وهو ( الشرف ) دون أن تعمق الخلفية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تحكم تصرفات هؤلاء الناس بتفاوتهم الطبقي . ولكن أهم شيء طرحته هذه القصة — في النهاية — هو هذا الحذر الذي يجب أن يتخذه الأغنياء من الفقراء المعذيين . انهم يحسون أن هؤلاء الفقراء المعذيين سوف يبحثون عن طريق للخلاص من هذا الذل الذي يعيشون فيه والهوان الذي يحيون معه .. يقول سيد القصر :

( وهبت على هؤلاء البائسين من أهل القرية وأمثالهم ربح لا أدرى من أين جاءتهم ولكنها حملت اليهم شرا عظيما .. علمتهم أن لهم شرفا ، وانهم يستطيعون أن يفضبوا لهذا الشرف وأن يسفكوا في سبيله الدم ويتعرضوا في سبيله للموت ) ثم يقول بعد ذلك :

( ولن أدهش اذا انبثت غدا ، أو بعد غد بان هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا ، وتسلبنا عليهم ، ويرونان لهم في أنفسهم حقوقا يدافعون عنها ) ص ١٠٠ .

— اذن هي الثورة .. الثورة من أجل الخلاص ..  
وهذا العمل — وبهذه الحدود — يعتبر تصورا ثوريا  
على هذا الظلم وهذا الظلم الذي معه يضيع  
الشرف .

اذن ما هو هذا الشيء الذي يوجد ( ما وراء

النهر ) ؟ انه الخلاص

الخلاص لكلا الطرفين .. الأغنياء والفقراء ..  
الأغنياء يبحثون عن مآمن لهم من غضب هؤلاء البؤساء  
الذين يمدونهم ، ويعيشون بشرفهم وكرامتهم ،  
والفقراء يبحثون عن اللحظة المواتية التي يستطيعون  
فيها مواجهة الطغمة المتسلطة .. لكي يرجع الحق  
المنهوب والكرامة المهددة والشرف المسلوب .

— وهذا الأمر ليس تأليا طبقيا بين هؤلاء  
وهؤلاء .. ولكنه عامل يقظة من أجل أحداث « الفعل »  
بالتغيير ، ومن أجل تثبيت دعائم الإصلاح الاجتماعي .

اذن ما وراء النهر هو الأمل في هذا الإصلاح  
الذي يطلبه طه حسين من أجل المجتمع ككل .



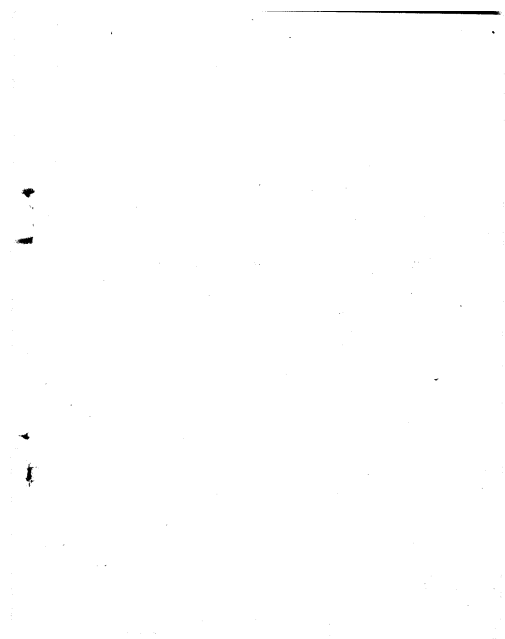
#### المراجع :

- - العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة - د. عزت قرني .
- - عالم المعرفة - يونيو ١٩٨٠ م العدد ٣٠ .
- - فصول في الأدب والنقد - د. طه حسين - دار المعارف - مصر .
- مع طه حسين - سامي الكيالي - سلسلة اقرأ - دار المعارف - مصر .
- جنة الشوك - طه حسين - دار المعارف .
- ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة - جلال العشري - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- - في الأدب الجاهلي - طه حسين - دار المعارف - مصر .
- - أدباء معاصرون - رجاء النقاش .
- التفكير العلمي - د. فؤاد زكريا - عالم المعرفة - الكويت - العدد ٣ .

— ألوان — طه حسين — دار المعارف .  
— مع أبي العلاء في سجنه — طه حسين — دار  
المعارف — مصر .

**دوريات :**

- ١ — مجلة الثقافة — العدد رقم ١٤ / ٢ .
- ٢ — مجلة القصة — العدد ١٤ ديسمبر ٧٧  
السنة الرابعة .
- ٣ — صحيفة الأهرام في ١٩٨٥/٢/٢٥  
و ١٩٨٣/١٢/٩ م .



## الفهرس

الصفحة	الموضوع	الترتيب
٥	مقدمة	٢
١٣	فصل تمهيدى منهج التفكير عند الدكتور طه حسين	
٣٧	الفصل الاول المعذبون فى الارض والسؤال	
٨٩	الفصل الثانى ما وراء النهر - البحث عن العدل الاجتماعى	٤
١٣٢	المراجع	٥

رقم الايداع ٨٨/٨١٤٤  
الترقيم الدولي X - ٢٠١٢ - ٠١ - ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب